

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب السادس والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السادس والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٥

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

المفردات :

(خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) : أي وساوسه ، وهي في الأصل جمع خُطْوة - بضم الخاء - وهي ما بين القدمين للماشي ، واستعملت هنا في وساوس الشيطان على سبيل المجاز ، والخَطْوة - بالفتح - اسم للمرة من الخَطْو ، ويجمعها خطَوات - بفتح الخاء والطاء ، تقول : خطا ، يخطو ، خَطْوة وخَطوات . (يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) : الفحشاء : ما أفرط قبحه كالفاحشة ، والمنكر : ما ينكره الشرع ، والشيطان يأمر بهما ، أي : يحث عليهما . (مَا زَكَا) : ما طهر . (وَلَا يَأْتَلِ) : أي ولا يحلف ، من الأَلِيَّة ، وهي : اليمين ، ومنه قوله تعالى في سورة البقرة : « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ » : أي يحلفون . (أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) : أصحاب الزيادة في الدين والسعة في المال .

التفسير

٢١ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ . . .) :

يأيها الذين تجملوا بحلية الإيمان ، لا تسلكوا مسالك الشيطان فيما يسعى إليه من الشرّ فيما بينكم ، ولا تعملوا بوساوسه ، فإنه لا يسعى إلى خير ، ولا يوسوس إلا بفتنة ، ومن يتبع خطوات الشيطان ، فيسلك سبيله ويعمل بوسوسته ، ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بهما ، ولا يحض إلا عليهما ، ومن كان كذلك لا يجوز اتباعه وطاعته فى وسوسته ، فكيف اتبعتموه فى نشر الإفك ، وما هو إلا كاذب أثيم ؟

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

ولولا تفضل الله عليكم ورحمته بكم ، إذْ أمهلكم حتى تثوبوا إلى رشدكم وتتوبوا من ذنبكم بعد ما أنزله إليكم من الآيات البينات الناطقة بطهر ابنة الصديق الكريم زَوْجِ النبى الأمين ، وأم المؤمنين - لولا هذا الفضل والرحمة - ما طهر أحد منكم أبداً من ذنب هذا الإفك المبين ، ولكن الله يزكى ويطهر من يشاءُ ممن حسنت توبته ، وصفت سريرته ، والله عظيم السمع لما يقال من الذنوب والتوبة منها ، محيط العلم بالمذنبين والتائبين - مخلصين أو غير مخلصين - فيجازى كلا على حسب حاله « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(١) .

وهذه الآية وإن نزلت بسبب خاص ، فهى قاعدة عامة تقتضى وجوب الابتعاد عن المنكرات ، فإنها ترضى الشيطان وتغضب الرحمن الذى يعلم السر وأخفى ، وتقتضى العقاب لمن لم يتدارك ذنبه ويستغفر ربه .

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

٢٢ – (وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَة أَن يُؤْتُوٓا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ) :

قال الألوسى فى سبب نزول الآية : صح عن عائشة وغيرها « أن أبا بكر – رضى الله عنه – حلف – لَما رأى براءة ابنته – ألا ينفق على مِسْطَح شيئاً أبداً ، وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا ، وكان ابن خالته – وقيل : ابن أخته – فنزلت الآية .

وقال القرطبى :رُوِىَ فى الصحيح : (أن الله تبارك وتعالى لما أنزل : « إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ » الآيات العشر ،قال أبو بكر – وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره – : والله لا أنفق عليه شيئاً أبدًا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ والسَّعَةِ » إلى قوله : « أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » فقال أبو بكر : والله إِنِّى لأُحِبُّ أن يغفر الله لى ، فأرجع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدًا) .

ويروى عن ابن عباس والضحاك : أن جماعةً من المؤمنين منهم أبو بكر – رضى الله عنه – قطعوا منافعهم عمن قال فى الإفك ، وقالوا : والله ما نَصِل مَنْ تكلم فيه ، فنزلت الآية .

ومعنى الآية : ولا يحلف أصحاب الفضل فى الدين والسعة فى المال ، كراهة أن يعطوا أصحاب القرابة والمساكينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله الذين اشتركوا فى نشر الإفك ، وليعفوا وليصفحوا عما فرط منهم ، ألا تحبون أيها الحالفون الكرام أن يغفر الله لكم بسبب عفوكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم[1] ؟ ، والله واسع المغفرة والرحمة ، مع كمال قدرته على المؤاخذة ، وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها .

وإذا كان سبب النزول حلف أبى بكر بالنسبة لمسطح فالجمع فى قوله : « أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ » وقوله : « أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » لقصد تعميم الحكم فى كل من يعفو عمن أساء إليه ويعطيه بعد أن حلف على حرمانه ، أما إن كان سبب النزول عاماً كما سبق عن

(١) ويصح أن يكون قوله تعالى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » للتمثيل وإقامة الحجة ، أى : كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم ، فكذلك اغفروا لمن دونكم : ذكره القرطبى .

ابن عباس فالجمع ظاهر ، والآية تدل على فضل الصديق سواء نزلت فيه وحده أو مع غيره ، كما تدل على أن التمذف وإن كان من الكبائر ، فإنه لا يحبط العمل ، لأن الله وصف مسطحا بعد أن قال فى عائشة ما قال — وصفه بأنه من المهاجرين — أى : من الذين حصلوا على شرف الهجرة وعظيم ثوابها ، إذ لا يحبط العملَ إلا الكفرُ ، كما قال تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »

كما يستنبط منها أن من حلف على عدم فعل شىء ، ثم رأى أن فعله أولى فليفعل الذى هو خير ، ولكن عليه أن يكفر عن يمينه ؛ لقوله تعالى فى سورة المائدة : « لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ . . » الآية (٨٩) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ) : العفيفات الغافلات عما يقال فى شأن أعراضهن زوراً ولا علم لهن به . (دِينَهُمُ الْحَقَّ) : من معانى الدين فى اللغة الجزاء : أى : جزاءهم الثابت الموافق لذنبهم . (هُوَ الْحَقُّ) : هو الثابت الذى لا يعتريه شك : (الْمُبِينُ) : البيِّن الظاهر بآياته — من أبان : بمعنى ظهر واتضح — أو المظهر للناس تمام قدرته على ثوابهم وعقابهم فى هذا اليوم ، من أبان الشىء ، أى : أظهره وأوضحه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

تضمنت هذه الآية وعيد القاذفين للمحصنات الغافلات المؤمنات باللعن فى الدنيا والآخرة ، وبالعذاب العظيم .

واختلف فى المراد بهذا الوعيد . فقيل : هم القاذفون لعائشة - رضى الله عنها - ، مراعاة للسياق وبهذا أخذ ابن عباس وابن جبير ، والجمع فى قوله : « الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » باعتبار أن رميها رمىٌ لسائر أُمهات المؤمنين ، لاشتراكهن فى الطهر والنقاء والقرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونظيره جمع المرسلين فى قوله تعالى : « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ » . مع أنهم كذبوا هوداً وحده .

وقال المحققون : هم الذين يقذفون أُمهات المؤمنين ، فلا يختص بهذا الحكم من رمى عائشة وحدها ، بل يعمه ومن رمى غيرها من زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - حفاظًا على كرامة البيت النبوى الشريف . وبهذا الرأى قال ابن عباس فى رواية أخرى ، فقد أخرج ابن جرير والطبرانى بسندهما عنه أنه قرأ سورة النور ففسرها ، فلما أتى على هذه الآية قال : هذه عائشة وأُمهات المؤمنين ، وهذا هو الراجح وبه نقول : ولم يَجْعَلْ ابن عباس لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى غيرهن من المحصنات التوبة ، وقرأ « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » إلى قوله : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » الآية . والذى يظهر - والله أعلم - أن الله تعالى يقبل توبة من تاب منهم لقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ولأنه قد تاب مسطح وحمنة وحسان واعتذروا وقبل الرسول اعتذارهم ولم يعاملهم معاملة المرتدين ، بل أقام عليهم حد القذف ، تطبيقاً لحكم الله فى القاذفين ، ودعا القرآن الصّديق أن يعيد النفقة لمسطح وأطلق عليه لقب المهاجر ، وهو تشريف لا يناله إلا مؤمن قبل الله توبته .

فإن قيل : إن وعيد القاذفين بأنهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يؤذن بكفر القاذفين ، فإن مثل هذا الوعيد لا يكون إلا للكافرين ، فالجواب عليه من وجوه :

(أحدها) أن هذا الوعيد محمول على من يقذفهن بعد نزول آيات البراءة لأزواجه - صلى الله عليه وسلم - لأنه حينئذ يكون مكذباً لله ، ومن كذب الله فهو كافر ملعون وله عذاب عظيم .

(ثانيها) أنه مقصود به من ظل مستبيحا للطعن كابن أُبيٍّ وشركائه من المنافقين الذين تظاهروا بالتوبة ، وقد روى عن ابن عباس تخصيص وعيد الآية بابن أُبى رأس النفاق ومبتدع الإفك .

(ثالثها) أن هذا الوعيد مشروط بعدم التوبة ، ولم يذكر هذا الشرط ، لأنه معلوم بالضرورة أن من تاب ، تاب الله عليه ، وهو الراجح لما تقدم بيانه .

وقيل : إن الآية نزلت فى مشركى مكة ، فقد كانت المرأة المسلمة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها ، وقالوا عنها : خرجَتْ لتفجر - حكاه صاحب البحر عن أبى حمزة اليمانى وأيد بقوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فإن شهادة الأعضاء تكون على الكفار لقوله تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ . . . »[1] . الآيات الثلاثة .

وإذا كان القاذفون من المسلمين ، فالمقصود من لعنهم فى الدنيا - كما قال القرطبي - : إبعادهم وضربهم الحد ، واستيحاش المؤمنين منهم ، وهجرهم وإنزالهم عن رتبة العدالة ، والإمساك عن حسن الثناء عليهم .

وأما على قول من قال : إن الآية نزلت فى مشركى مكة ، فالمراد من لعنهم : طردهم عن رحمة الله ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، مالم يُسْلِموا فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، قال تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ » .

والمعنى الإجمالى للآية على الوجه الراجح ، إن الذين يرمون بالفاحشة أزواج النبى المؤمنات العفيفات عما يفترى عليهن ، الغافلات عما ينشره الآفكون حولهن منْ قَالة السوء ، ولا علم لهن بما يفترون - إن هؤلاء القاذفين - يلعنون فى الدنيا حيث يقاطعهم المجتمع ويبعدهم عن حظيرته ، ويقيم القاضى عليهم حد القذف ، وترد شهادتهم ويوصمون بوصمة الفسق ،

(١) سورة فصلت ، الآيات : ١٩ - ٢١

كما يطردون فى الآخرة من رحمة الله ، ولهم فيها عذاب عظيم لا يقادر قدره ، إلا من تاب وعمل صالحًا فإنه يرد إليه اعتباره فتقبل شهادته بعد إقامة الحد عليه ، ويغفر الله له عثرات لسانه ، أما على أن الآية نزلت فى مشركى مكة فمعناها واضح .

٢٤ - (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

المقصود من شهادة هذه الجوارح عليهم : أن الله تعالى ينْطِقُ كل جارحة بما صدر عنها ، لكبح إنكارهم وقطع أعذارهم ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى قبلها .

والمعنى : والذين يرمون المحصنات لهم عذاب عظيم ، فى يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما افترته من الأكاذيب ، ورددته من الفحش ، وتشهد عليهم أيديهم بما جنته من التشهير بالإشارات وتشهد عليهم أرجلهم بما سعت إليه من نقل المفتريات ، فينطقها الله الذى أنطق كل شىء ، وتغلق دونهم منافذ الإنكار ، ومفتريات الأعذار فى يوم تشخص فيه الأبصار : « يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ »[١] .

والآية وإن نزلت بخصوص واقعة القذف ، فالحكم فيها عام يتناول جميع مايكتسب بهذه الجوارح من المعاصى .

٢٥ - (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)[٢] :

أى : يومئذ تشهد عليهم جوارحهم ، يوفيهم الله جزاءهم الحق المناسب لما كسبوه من السيئات ، ويعلمون مما يشاهدونه من عدالة الله وقدرته وعظمته التى تتجلى فى أحوال القيامة وأهوالها - يعلمون أن الله هو الإله الحق الذى لا ريب فيه ، الظاهر الذى لا خفاء فى ألوهيته وعدالته وقدرته ، أو المظهر لأهل الحق حقوقهم ، ولأهل الباطل أباطيلهم ، المجازى لكليهما بما كسبه فى دنياه .

---

(١) سورة غافر الآية : ٥٢

(٢) اسم فاعل من أبان ، ويكون لازما بمعنى ظهر ، ومتعديا بمعنى أظهر ، كما يتضح من تفسيرنا للآية .

(ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُولَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(الْخَبِيثَاتُ) : ضد الطيبات . (الْخَبِيثُونَ) : ضد الطيبين . والْخبْثُ : الرداءة .
(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : وثواب سَخِيٌّ ، وهو الجنة . كما قاله أكثر المفسرين .

التفسير

٢٦ — (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ . . .) الآية .

هذا كلام مستأنف مبنى على سنة الله الجارية بين الخلق ، من أن شبيه الشيء منجذب إليه . وفى هذا المعنى يقول القائل : إن الطيور على أشباهها تقع . والآية مرتبطة بما قاله الآفكون فى شأن عائشة — رضى الله عنها — .

والمعنى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا لأنها طيبة فإنه أطيب من كل طيب من البشر . فلا يليق به سوى الطيبات . ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدراً ، ولا حسب سنة الله فى خلقه ، فإنه جعل الطيبات للطيبين . والطيبين للطيبات ، والخبيثات للخبثين والخبيثين للخبيثات .

وقال ابن عباس فى تفسيرها ما معناه : الخبيثات من الأقاويل للخبيثين من الرجال ، فلا توجه إلى غيرهم ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الأقاويل . فهم جديرون بها ، والطيبات من الأحاديث للطيبين من الرجال ، فهى حق لهم ، والطيبون من الرجال للطيبات

من الأحاديث فلا يعدل بها عنهم - واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين منهم ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال : « أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ »[1] ولهذا ختم الله الآية بما هو نتيجة لهذه المقدمة فقال :

(أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : أي أن أهل هذا البيت الكريم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان لهم ، بسبب ما قيل فيهم من الإفك مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الهفوات أو لما يعد بالنسبة إليهم هفوات ، وإن كان بالنسبة لغيرهم مكرمات ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولهم بسبب ذلك رزق عظيم في جنة الرحمن الرحيم .

وبعد ، فإن نزول هذه الآيات العظيمة في تبرئة أم المؤمنين عائشة ، فيه مزيد اعتناء بشرف الرسول وكرامته على الله ، وجبر لقلب صاحبه أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكذا قلب زوجته أم رومان ، فقد اعتراها من حديث الإفك هم جسيم ، كما أن فيه تكريما لعائشة - رضي الله عنها - لمزيد انقطاعها إلى الله - عز وجل - ولجوئها إليه في محنتها .

---

(١) انظر ابن كثير .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(تَسْتَأْنِسُوا) : تطلبوا أُنس أهل البيت باستئذانكم إياهم فى دخوله ؛ حتى لا تحدث لهم وحشة ورعب بدخولكم عليهم دون استئذان .

(هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) : هو أطهر لكم — من الزكاة ، بمعنى : الطهارة — أو أنفع لدينكم ودنياكم — من الزكاة بمعنى النمو — (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) : ليس عليكم حرج .

(فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ) : أى فيها حق استمتاع بها لكم ، وسيأتى شرحه .

(مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) : ما تظهرون وما تخفون .

التفسير

٢٧ — (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

لا يزال الحديث ممتداً فى تأديب الله لعباده نحو حرماتهم ، فقد أنزل هذه الآية وما بعدها ليعلمهم أن للبيوت حرمات لا يحل انتهاكها بدخولها دون استئذان ، وسبب نزولها : ما رواه

الطبرانى وغيره عن عدى بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل علىّ وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن ؟ فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . . »[1] الآية .

وقال مقاتل بن حيّان : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حيّيت صباحا ، وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغير الله ذلك كله فى سَتْرٍ وعفة ، وجعله نقيا نَزِهًا من الدنس والقذر والدرن ، فأنزل الله هذه الآية[2] : اهـ .

فأنت ترى أنه تعالى نهَى فيها عباده عن دخول بيوت غيرهم حتى يستأنسوا ويسلموا على أهلها ، والمراد من الاستئناس هنا : الاستئذان ، وبه قرأ عبد الله بن عباس وسعيد ابن جبير ، وقد فسره به الجمهور ، وأصل الاستئناس : طلب الأُنس الذى هو ضد الوحشة ولما كان المستأذن يريد باستئذانه أن يأنس به أهل البيت ولا يستوحشوا منه فيأذنوا له ، عبر عن استئذانه بالاستئناس على سبيل المجاز .

وفسره بعضهم بالاستعلام ، كما فى قوله تعالى : « فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا » أى : فإن علمتم ، والواقع أن التفسيرين متقاربان ، فإن الاستئذان مع ما فيه من طلب الإذن فيه طلب العلم بوجود أهل البيت وبرضاهم عن دخوله .

وقد تضمنت الآية أن يقرن المستأذن السلام باستئذانه ، وظاهر النص تقديم الاستئذان على السلام ، ولكن الأولى العكس حسبما ورد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – والواو لمطلق الجمع ، فلا تقتضى الترتيب ، وصورتهما : أن يقول المستأذن : السلام عليكم ،

(١) انظره فى تفسير القرطبى لهذه الآية .

(٢) انظر ابن كثير ج ٦ ص ٤٢ ط الشعب .

أأدخل؟ فقد أخرج أبو داود عن ربعي قال: (حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لخادمه: «اخرج فعلمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي -صلى الله عليه وسلم- فدخل).

ومن العلماء من قال بتقديم الاستئذان، فإذا أذن له فدخل سلم، وهذا الرأي يوافق ظاهر الآية ويخالف ما رواه أبو داود عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد تقدم قبل هذا، وهو أحق بالاتباع.

ويسن الاستئذان إلى ثلاث مرات إن لم يؤذن له بعد الأولى والثانية، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة انصرف، فقد جاء في الصحيح أن أبا موسى الأشعري حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ -يعني أبا موسى- ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف...» الحديث.

وقد كانت البيوت من غير أبواب ولم يتخذ لها الستور، فكانت السنة أن يقف المستأذن بجانب المدخل يمينا أو يساراً ولا يستقبله، روى أبو داود عن عبد الله بن بسر قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور)[1].

فإن قيل: ما الحكم بعد أن استحدث الناس الأبواب، وسكنوا في الطوابق، واستحدثوا أجراساً على أبوابهم؟ فالجواب: أن الاستئذان يكون في هذه الحالة إما بدق الباب أو بقرع الأجراس، فقد صح عن أبي موسى الأشعري (أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان في حائط بالمدينة على قف بئر، فمد رجليه في البئر فدق الباب أبو بكر، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ائذن له وبشره بالجنة») والحائط: البستان، وقف البئر: الدكة المرتفعة التي تجعل حولها.

(١) القرطبي ج ١٢ ص ٢١٦ - المسألة السابعة.

وينبغي أن يكون الدق خفيفاً غير مزعج ، فقد روى أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال : (كانت أبواب النبي -صلى الله عليه وسلم- تقرَع بالأظافر) رواه الخطيب فى جامعه[1] .

وكما يشرع الاستئذان للرجال يشرع للنساء ، فقد يكون أهل البيت على حال لا يحسن أن يطلع هؤلاء النساء عليها ، فالخطاب فى الآية للذكور على وجه التغليب لا التخصيص ، فإن النساء شقائق الرجال فى الأحكام إلا ما خص كلا منهم كأحكام الحيض والنفاس للنساء ، ومضاعفة الميراث للرجال ، ويؤيد العموم ما أخرجه الطبرانى عن أبى أمامة - رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : « من كان يشهد أنى رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأذن ويسلم ، فإذا نظر فى قعر البيت فقد دخل »[2] أى : فإذا نظر فى داخل البيت قبل أن يؤذن له ، فكأنما دخل قبل الاستئذان ، وذلك لا يحل له ، فأنت ترى أن الحديث جاء بصيغة العموم التى تعم الرجال والنساء .

فإذا استأذنت فقيل لك : من الطارق مثلا ؟ فيكره أن تجيبه بقولك : أنا ، فقد روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- قال : (استأذنت على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال : «من هذا ؟» فقلت : أنا ، فقال : « أنا ، أنا » كأنه كره ذلك) وربما ترجع كراهة النبي لذلك ، إلى أن فى ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب ، فإن لفظ (أنا) لا تحصل به المعرفة ، وربما أوهم غرورَ المجيب بنفسه ، فكأنه يرى أنه الشخص الذى لا يجهله أحد ، فيكفى أن يقول عن نفسه : (أنا) ليعرف .

وثبت أن عمر بن الخطاب أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو فى مشربة له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر ؟ ، وفى صحيح مسلم ، أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : (السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم هذا الأشعرى . . .) الحديث .

وهذه الأحكام إنما هى فى بيت ليس لك ، فأما بيتك فلا تستأذن فيه على أهلك ، ولكن تسلم عليها إذا دخلت فإن كان معها أمك أو أختك فاستأذن ؛ فقد تكونان على حالة

---

(١) انظر المسألة التاسعة من القرطبى . (٢) الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٢ طبعة منير .

لاتحب أن تراهما فيها ، روى عطاءُ بن يسار أن رجلا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- : أستأْذن على أمى ؟ قال : « نعم » قال : إنى أخدمها ، قال : « استأْذن عليها » فعاوَدَها ثلاثاً ، فقال : « أتحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا . قال : « فاستأْذن عليها » ذكره الطبرى[١] .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا ذكوراً وإناثا - لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ، حتى تستأْذنوا مَنْ له حق الإذن من أهلها فى الدخول عليهم وتسلموا عليهم تحية لهم ، ذلكم الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ، لما فيه من الاطلاع على عوْرات إخوانكم وإزعاجهم ، وخير لكم من تحية الجاهلية إذ كانوا يقولون : حييتم صباحا وحييتم مساءً ، وقد أُرْشِدْتم إلى ذلك لعلكم تتذكرون وتتعظون فتعملوا بما شرع لكم .

٢٨ - (فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) :

أثبتت الآية السابقة حكم البيوت المسكونة ، فنهت عن دخولها من غير إذن أهلها ، وجاءت هذه الآية لتبَيِّنَ حكم دخول البيوت الخالية التى يملكها سواكم .

والمعنى : فإن لم تجدوا فى البيوت التى يملكها سواكم أحداً من أهلها فلا تدخلوها ، سواءٌ أكان الباب مغلقاً أم مفتوحاً ، لأن الله أغلقه بالتحريم[٢] ، حتى يأْتى من أهلها من له حق الإذن ، فتستأْذنوه فيأْذن لكم ، ولا عبرة بإذن خادم ولا صبي كما يقول به بعض الأئمة ، لأَن مثلهما لا إذن له[٣] ، وإن قيل لكم من جهة أهل البيت : ارجعوا ولو بعد الإذن لكم بالدخول[٤] ، فارجعوا ولا تدخلوا ولا تلحوا سواءٌ أكان الآمر بالرجوع يملك الإذن بالدخول أم لا[٥] ومثله فى حكم وجوب الرجوع الإمساك عن الإجابة ، أو الاعتذار بعدم

---

(١) انظره فى القرطبى - المسألة السادسة عشرة : فقد نقله عن الطبرى .

(٢) انظر القرطبى فى المسألة الثانية فى تفسير هذه الآية .

(٣) ذكره الآلوسى ، وذكر القرطبى أن الإذن يصح من الصغير والكبير من أهل البيت ، انظره فى المسألة الثالثة من تفسير الآية السابقة ، ونحن نرجح ما نقله الآلوسى ، وبخاصة فى هذا الزمان الذى كثر فيه الفساد وسوء النية فلا يصلح للإذن فيه سوى الرجال من أهل البيت .

(٤) انظره فى ابن كثير

(٥) انظره فى الآلوسى .

وجود من يلقاه أو يجالسه من الرجال أو نحو ذلك ، والرجوع عن الدخول فى هذه الأحوال وأمثالها واجب ، سواءٌ أكان فى البيت أهله أم لا ، كما أنه أدعى إلى الطهر والنزاهة ولهذا قال سبحانه :(وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) : أى أطهر لكم لما فيه من السلامة من القيل والقال والتصرف فى ملك غيركم إن دخلتموه دون رضاه ، والدناءة والخسة إن بقيتم بالباب تَلِجُّون وتلحون ، وإنما يتوقف الدخول على الإذن ما لم يكن هناك داع شرعى كإزالة منكر توقفت إزالته على الدخول بغير إذن ، وإطفاء حريق فيجوز رعاية لشريعة الله[1] ، ثم ختم الله الآية بقوله :(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : ليوعِدِ من امتثل أمره ووعيد من عصاه ، أى : أنه تعالى يعلم ما تفعلون وما تتركون مما كلفكم به ، ويعلم ما انطوت عليه قلوبكم من الأغراض الشريفة أو الخسيسة حين استئذانكم ، فيحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم ونياتِكم ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشر .

٢٩ ـ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) :

يبيح الله فى هذه الآية دخول بيوتٍ غير مسكونة بغير استئذان ، إذا كانت لها صفة العموم ، وتعتبر هذه الآية مخصصة لعموم ما قبلها .

والمراد من هذه البيوت : مالم يجعل لسكنى طائفة خاصة ، بل جعل ليتمتع بها من كان بحاجة إليه كالحانات والحمامات العامة ، ومنازل المسافرين العامة ، وحوانيت التجار ونحوها ، والمراد بالمتاع : المنفعة . فَعَنْ محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد :هى الفنادق التى فى طرق السابلة ، قال مجاهد : لا يسكنها أحد ، بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل وفيها متاع لهم ،أى : استمتاع بمنفعتها ، وقال ابن زيد والشعبى : هى حوانيت القيساريات ، قال الشعبى : لأنهم جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس : هَلموا ، وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خَرِبَة يدخلها لقضاء الحاجة ، فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع ، واستحسنه أبو جعفر

(١) انظره فى الآلوسى فى شرحه لقوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .

النحاس ، وقال : المتاع فى كلام العرب : المنفعة ، ومنه : أمتع الله بك ، ومنه : « فمتعوهن »[1] .

ويدل على صحة هذه الآراء ما أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل أنه لما نزل قوله تعالى : « يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا . . . » الآية .

قال أبو بكر –رضى الله عنه– يارسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فرخص سبحانه فى ذلك ، فأنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ . . . » الآية[2] .

فالمراد بتلك البيوت غير المسكونة : مافيها انتفاع عام ، ويدخل فيها دور العلم المباحة ، أما إذا كانت لها قيود أو بأجر ، فلابد من الاستئذان عليها والتزام شروطها ، وكذلك الفنادق التى يسكنها المسافرون بأجر فلا يدخلها أحد بغير استئذان والتزام بحدودها ، ومثلها الحمامات الخاصة ونحوها .

وخلاصة معنى الآية : ليس عليكم –أيها المؤمنون– حرج ولا إثم ، فى أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً غير مسكونة فيها متاع – أى :منفعة – لكم بدخولكم فيها ، كالدور الموقوفة على أبناء السبيل ، ومنازل المسافرين العامة المقامة على الطريق ليستريح فيها المسافرون ، ودور العلم العامة التى لم يجعل لها شروط تمنع أحداً من حضورها ، والبيت المعد لنزول أى ضيف ، وحوانيت التجار ، والمراحيض العامة والخَربات لقضاء الحاجة – ليس عليكم جناح – أن تدخلوا هذه وأمثالها دون استئذان ، لأن لكم حق التمتع – أى الانتفاع – بها ، والله يعلم ما تظهرون وما تخفون من أعمال ونيات ، فيحاسب كل من دخل هذه البيوت المأذون بدخولها بلا استئذان – يحاسبه ويجازيه – على عمله ونيته ، فإذا كان دخوله إياها لراحة نفسه أوقضاء مصلحة شرعية له أو لغيره فله ثوابه وإن كان للفساد والإفساد ، فعليه عقابه .

---

(١) انظر القرطبى فى المسألة الثانية فى تفسير الآية . (٢) انظر الحديث فى تفسير الآلوسى للآية .

(قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَالِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ ٱلتَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) : يخفضوها كَفًّا لها عن النظر إلى مَنْ يحرم النظر إليهن ، وكل شيء غضضته فقد كففته ، وفعله من باب رد يردُّ . (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) : يمنعوها عن الزنى واللواط . (أَزْكَى لَهُمْ) : أطهر لهم .

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا) : ولايظهر من الزينة إلاماظهر منها عادة كالخاتم ، وللكلام بقية فى التفسير .

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) :الخُمُرُ : جمع خمار وهو ما تلقيه المرأة على رأسها من الثياب لسترها ، وهو من الخمر ، بمعنى الستر ، والجيوب ، جمع الجيب ، وهوفتحة فى أعلى القميص يبدو منها بعض الجسم ، وأصله :من الجيب أو الجوب ، بمعنى القطع ، وفى الصحاح تقول :

جبت القميص أجيبه وأجوبه إذا قوّرت جيبه ، وضربهن بالخمر على الجيوب إلقاؤهن إياها على الصدور لسترها مع الأعناق . (بُعُولَتِهِنَّ) : أزواجهن .

(أو نِسَآئِهِنَّ) : أى النساء الحرائر المؤمنات المختصات بهن كصاحبة وخادمة .

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) : من الإماء دون العبيد . (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) : أى الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من فضل الطعام ، ممن ليس لهم حاجة إلى النساء من الشيوخ الطاعنين فى السن . (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ) : أو الأطفال الذين لم يميزوا بين عورات النساء وغيرها ، ولا يدرون ماهى العورة ، وللكلام بقية فى التفسير .

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ) : ولا يضرب المؤمنات الأرض بأرجلهن لإعلام الرجال ما يخفين من زينتهن حين يسمعون صوت الخلاخيل بسبب ضربهن الأرض .

التفسير

٣٠ - (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[1] مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

شرع الله فى الآيات السابقة وجوب الاستئذان على البيوت توفيراً لحرمات أهلها ، وستراً لعوراتهم عمن يدخلونها فجأة ، وجاء بهذه الآية والتى بعدها تتميما لما قبلها من الآداب التى تحمى الأعراض ، وتحفظ فى المؤمنين والمؤمنات مكارم الأخلاق ، فقد أمر الله فيهما بغض البصر عن المحرمات ، وعدم إبداء الزينة لغير من يحل إبداؤها له ، إلى غير ذلك من الآداب والأحكام التى سنبينها .

والبصر : هو الباب الموصل إلى القلب ، وأشد الحواس تنبيها له ، وعن طريقه غالباً يكثر السقوط والانغماس فى أوحال الفتنة ، فهو بريد الزنى ورائد الفجور ، قال الشاعر :

كل الحوادث مَبدَاهَا من النظر ومعظَم النار من مستصغر الشرر
كم نظرةٍ فعلت فى قلب صاحبها فِعلَ السهام بلا قوس ولا وَتَر

(١) يغضوا : مجزوم فى جواب الأمر : وهو لفظ (قل) لتضمنه معنى الشرط ، كأنه قيل : إن تقل لهم غضوا يغضوا .

فلهذا عُنِيَ الشرع بإيجاب غض البصر وكفِّه عن المحرمات ، والتحذير من الفتنة عن طريقه ، كما جاء فى هاتين الآيتين ، وكما فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا : ما لنا بدٌّ إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غَضُّ البصر وكفُّ الأذى وردُّ السلام ،وأمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر » أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى ، واللفظ للبخارى(١)

والأمر فيها موجه إلى النبى -صلى الله عليه وسلم - لإيذانه بمتابعته لهم فى هذا الشأن. وهيمنته عليهم فيه حتى يكفوا عما اعتادوه فى الجاهلية من نظر الرجال إلى النساء والنساء إلى الرجال .

هذا ، وقد قيل : إن سبب نزول الآية : ما أخرجه ابن مردويه بسنده عن على بن أبى طالب قال : مر رجل على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ، ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدمَ حتى آتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فَأُخْبِرَه أَمْرِى ، فأتاه فقص عليه قصته ، فقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « هذا عقوبة ذنبك » وأنزل الله تعالى : « قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » انظر الآلوسى .

وغض البصر :خفضه كَفًّا له عن النظر ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : (مِنْ أَبْصَارِهِمْ) إما لا بتداء الغاية-كما قال ابن عطية - وإما أن تكون للتبعيض ، فالمراد :غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل(٢) كالنظر إلى الزوجة والمحرم ، ويجب أن يتجرد نظره إلى المحرم عن الشهوة ، بل لقد كره الشعبى أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ،

---

(١) كتاب المظالم ،باب : أفنية الدور والجلوس على الصعدات .

(٢) فجعل الغض عن بعض المبصرات غضا لبعض البصر ،على سبيل الكناية، وهى كناية حسنة كما فى الكشف .

وزمانه خير من زماننا[1] ، فإذا نظر إليها بشهوة فإثمه شديد وعقابه عنيف ، نسأل الله العصمة لعباده المؤمنين .

ونقل كثير عن السلف أنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل النظر إلى الأمرد ، وشدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان .

أما نظرة الفجاءة إلى الأجنبية فلا إثم فيها ، فقد أخرج أبو داود وغيره عن بريدة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « لا تُتبع النظرة النظرةَ ، فإن لك الأُولى وليست لك الآخرة » .

والمراد بحفظ الفروج أمران ، أحدهما : حمايتها من الزنى واللواط ، وثانيهما : سترها عمن لا يحل له النظر إليها من الأجانب والأقارب ، إلا فى حالات جراحتها أو علاجها أو الكشف عن مرضها ، فإنه يجوز كشفها للطبيب الأمين[2] عند الضرورة .

أما الزوجة والأمة فلا يدخلان فى الأمر بحفظ فرج الرجل عنهما ، روى بَهْز بن حكيم ابن معاوية القشيرى عن أبيه عن جده قال : (قلت يا رسول الله : عوراتنا ؟ ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك » ثم سأله عن الرجل يكون خالياً ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : «الله أحق أن يستحيا منه من الناس ») نقله القرطبى ثم قال فى المسألة الخامسة ما خلاصته :أن العلماء حرموا دخول الحمام على الرجال بغير مئزر ، أخذًا من نص الآية ، فإن دخلوها بمئزر جاز ، وقد دخل ابن عباس الحمام بإزاره وهو مُحْرِمٌ بالجحفة ، أما دخول النساء فأجازه بعض العلماء لضرورة العلاج ونحوه ، مع الاستتار بنحو مئزر ، أما لغير ذلك فلا ، فقد أخرج ابن منيع بسنده عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : (لقينى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد خرجت من الحمام ، فقال : « من أين يا أم الدرداء ؟ » فقالت : من الحمام ، فقال : « والذى نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمهاتها ، إلا وهى هاتكة كل

(١) انظر القرطبى .
(٢) ويشترط حضور من يمنع حضوره الخلوة إذا كان المريض امرأة ، كالزوج والأب

ستر بينها وبين الرحمن عز وجل » وأخرج البزار عن طاووس عن ابن عباس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احذروا بيتاً يقال له الحمام » قالوا يارسول الله يَنْفِى الوسخَ ، قال : « فاستتروا » وهذا أصح حديث فى الباب ، فإن دخله مستترا فعليه أن يحقق عشرة شروط ، منها : أن يكون بنية التداوى أو النظافة ، وأن يستتر بإزار صَفِيق ، وأن يغير ما يراه من منكر برفق - إلى آخر ماذكره القرطبى فارجع إليه إن شئت .

والمعنى الإجمالى للآية : قل -أيها الرسول- للمؤمنين : يخفضوا من أبصارهم كفا لها عن رؤية ما لا تحل رؤيته من النساء والرجال ، ويحفظوا فروجهم بمنعها عن الزنى ، وسترها عن غير زوجاتهم وإمائهم ، ذلك الغض للبصر وحفظ الفرج أطهر لهم فى الدين ، وأبعد عن دنس الإثم ، إن الله عليم بما يصنعون من امتثال أمره أو عصيانه . فيجازى كلا على ما كسب ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٣١ - (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . . . . .) الآية .

أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- فى هذه الآية أن يبلغ النساء المؤمنات ، أنهن مكلفات بغضِّ أبصارهن وحفظ فروجهن ، مع أنهن داخلات فى حكم الآية السابقة للتأكيد ، فإن قوله : « قل لِّلْمُؤْمِنِينَ » يعم حكمه الذكور والإناث حسب كل خطاب فى القرآن ، فإن النساء شقائق الرجال فى الأحكام إلا ما خص كلا منهم بدليل أو قرينة .

وقد فهم من الآيتين أنه كما يحرم نظر الرجال إلى النساء غير المحارم ، يحرم نظرهن إليهم كذلك ، أخرج أبو داود والترمذى بسندهما عن أم سلمة (أنها كانت عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وميمونة ؛ قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احتجبا منه » فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « أَوَ عمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح [١] . ومنه عرف

---

(١) انظره فى ابن كثير .

أن نظر المرأة ولو لرجل أعمى حرام ، وكما يحرم على الرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها[(١)] ، يحرم على المرأة أن ترى منه سوى وجهه وكفيه ، وكما يجب على الولى منع الفتى المراهق من نظر المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها ، يجب على ولى الفتاة المراهقة أن يمنعها من نظر ما عداهما من الرجل الأجنبي ولو مراهقاً[(٢)]

وفهم من الآية أيضاً أنه يجب على المرأة حفظ فرجها من الزنى والسحاق ، وستره عن غير زوجها وسيدها إن كانت أمة ، ما لم تكن محرمة عليه لنحو زواج ، فلا يحل لها أن تبديه لسيدها ، وكما يحرم عليها إظهاره للعين مباشرة يحرم إظهاره بالثوب الشفاف أو الضيق ، أو بالحديث عنه ، فكل ذلك حرام ، لما يترتب عليه من إثارة الشهوة والفتنة .

وفهم من الآية أيضاً أنه يحرم على المرأة أن تبدى من زينتها إلا ماظهر منها[(٣)] ، والمراد منه : الوجه والكفان ، ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود عن عائشة -رضى الله عنها- (أن أسماء بنت أبى بكر -رضى الله عنهما- دخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه) وبهذا النص أخذ محققو الشافعية[(٤)] قال القرطبي : وهذا أقوى فى جانب الاحتياط ، ولمراعاة فساد الناس ، فلاتبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، ونقل عن ابن خوَيْزِ مَنْدَاد من علماء المالكية : أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من رؤية وجهها وكفيها الفتنة ، فعليها سترهما ، وإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها

وقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب ، وقال سعيد بن جبير وعطاء والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب[(٥)]

---

(١) وهو رأى المحققين من الشافعية ، وسيأتى تفصيل آراء المذاهب فيما يحل إظهاره من المرأة ، والله الموفق

(٢) المراهق : من قارب بلوغ الحلم من الذكور والإناث

(٣) وذلك على الأجانب كما سيأتى بيانه .

(٤) وهو الذى نقل فى الروضة عن الأكثرين ، وصوبه فى المهمات ، ومن الشافعية من قال : يحرم النظر إلى الوجه والكفين أيضا ، ذكره صاحب المنهاج ، ولكن الرأى الأول أحق وأيسر كما أنه متفق مع ما جاء فى حديث عائشة المذكور

(٥) فالزينة قسمان : خلقية ومكتسبة ، فالوجه والكفان ما ظهر من زينتها الخلقية ، والثياب ما ظهر من زينتها المكتسبة .

وروى عن ابن عباس وقتادة والمِسْور بن مخرمة : ظاهر الزينة : هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرَطَة والفَتَخ[١] فمباح أن تبديه المرأة على الناس . هكذا نقل القرطبي عنهم ، ولكنه على هذا التفصيل ـ لوصح ـ يوقع فى الفتنة . ولهذا فنحن نرجح الرأى القائل بقصره على الوجه والكفين ، لحديث عائشة السابق[٢] . مضموما إليهما ما ظهر من الثياب على أن يكون فضفاضا غير شفاف ، فإنه لابد من رؤيته عند إظهار الوجه والكفين بحكم الضرورة .

وقال ابن عطية : ويظهر بحكم ألفاظ الآية ، أن المرأة مأمورة أن لا تبدى ، وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناءُ لما يظهر بحكم الضرورة فى إصلاح شأن ونحوه فمعفو عنه[٣]

واعلم أن ماظهر من الزينة على ماسبق بيانه مباح إظهاره للأجانب والمحارم . وأن مابطن منها لا يحل إبداؤه إلا لمن ذكرهم الله فى هذه الآية ، على ماسيأتى بيانه . واعلم أن السوار من الزينة الباطنة ـ كما قال مجاهد ، لأنها فى الذراع لافى الكفين . وهو بذلك يخالف مانقل سابقا عن ابن عباس من كونها من ظاهر الزينة ، ومن الزينة الباطنة : الخلخال والدملج والقلادة والقرط[٤]

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) :

الخمر : جمع الخمار ، وهو ماتغطى به المرأة رأسها ، والجيوب :جمع الجيب ، وهوكما قال الآلوسى : فتح فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد[٥]

والمراد من الآية ـ كما روى عن أبى حاتم عن ابن جبير ـ : أمرهن بستر نحورهن وصدورهن بخمرهن ، لئلا يرى منها شئ

(١) القرطة ـ بوزن عنبة ـ جمع :قرط ؛ وهو حلية الأذن ؛ والفتخة بالسكون وبفتحتين :الخاتم ؛ وجمعها : فتخ بفتحتين

(٢) ولظهورهما فى الصلاة والحج .

(٣) انظر المسألة الثالثة فى تفسير القرطبى للآية .

(٤) انظر الآلوسى .

(٥) وفى الصحاح : تقول : جبت القميص أجوبه وأجيبه إذا قورت جيبه .

وكان النساء يغطين رءوسهن بالخمر، ويسدلنها[1] كعادة الجاهلية من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن.

وصح أنه لما نزلت هذه الآية، سارع نساء المهاجرين إلى امتثال مافيها، فشققن مروطهن[2] فاختمرن بها تصديقا وإيمانا بما أنزل الله - تعالى - من كتابه.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) :

بعد أن أجاز الله للمرأة فى صدر الآية أن تبدى للأجانب من زينتها مايظهر منها عادة، عقبه بإجازة أكثر منه لأنواع عيّنها فيها

وأول هذه الأنواع: (البعولة) جمع بعل، ويطلق على الزوج، وكذا على السيد، كما قاله ابن العربى، ومنه ماجاء فى حديث جبريل عن أشراط الساعة فى إحدى الروايات: «إذا ولدت الأمة بعلها» يعنى سيدها؛ لأنها إذا استولدها سيدها، فولدها يكون سببا فى عتقها بعد موت أبيه، فكأنه سيدها الذى من عليها بالعتق[3]، فكل من الزوج والسيد يرى زينة المرأة كلها، وله الحق فى أكثر من رؤية زينتها وهو تمام الاستمتاع بها نظرا أو فراشا فى مكان الحل منها، قال تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ»[4].

أما النظر إلى الفرج فقد أجازه قوم بالقياس الأولوى على الجماع، فللرجل أن ينظر إلى فرج زوجته وأمته، ولهما أن ينظرا إلى فرجه، ومنعه بعضهم لحديث عائشة: «مارأيت منه ولا رأى منى» وحمله أصحاب القول الأول على الأدب لاعلى التحريم، ومن الفقهاء من أجازه مع الكراهة، وبه قال أكثر الشافعية[5]، ومن الفقهاء من قال إنه خلاف الأولى، وهو مذهب الحنفية كما حكاه الخفاجى.

---

(١) أى يرخين شعورهن، وفعله: سدل، من بابى: ضرب ونصر.

(٢) جمع: مرط، وهو كساء من صوف أو حرير كان يؤتزر به.

(٣) والحديث يشير إلى كثرة السرارى بكثرة الفتوحات، فيأتى الأولاد من الإماء، فتعتق كل أم بولدها - انظر القرطبى.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥، ٦.

(٥) وقليل منهم يقول بالتحريم

ولما بدأ الله بذكر البعولة ؛ثنى بذوى المحارم ، وهم آباءُ المرأة وإن علوا وآباءُ الأزواج كذلك ، وأبناءُ المرأة وإن سفلوا ، وأبناءُ الزوج كذلك ، وإخوان المرأة وبنو إخوانها ، وبنو أخواتها والمراد بإخوانها :إخوتها الذكور أشقاء أو لأب أو لأُم ،ومثل ذلك بنو إخوانها وبنو أَخَواتها وإن سفلوا ، فهؤلاء جميعا يجوز للمرأة أن تبدى من زينتها لهم أكثر مما تبديه للأجانب لكثرة المخالطة الضرورية ، وقلة توقع الفتنة ، فلهم أن ينظروا من المرأة مايظهر منها عند المهنة – أى الخدمة – كما ذكره الآلوسى .

وقال القرطبى فى المسألة الحادية عشرة : سوى الله بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر ، فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها ، وتختلف مراتب مايبدى لهم ، فيُبْدى للأب مالا يجوز إبداؤه لِوَلَدِ الزوج .

ونحن نرى ؛أن الاحتياط والتصون فى هذا الزمان أمر ضرورى ، لفساد المعايير والأخلاق ، فلا تبدى المرأة من جسدها لغير زوجها وسيدها إلا مايظهر عند خدمتها منزلها فى ثياب مرسلة ، وحشمة واتزان ، وبخاصة مع أبناء زوجها ، فينبغى أن يكون تحفظها معهم أكثر[1] .

ولم يرد فى الآية العم ،ولا الخال – مع أنهما من المحارم – والجمهور على أنهما كسائر المحارم فى جواز النظر إلى مايبدو من المرأة عند المهنة على نحو ماقلناه ، ولم يُذْكَرَا فى الآية اكتفاءً بذكر الآباء ، فإنهما عند الناس بمنزلتهم ، ولا سيما الأعمام ، وقيل :لم يذكرا لأن الأحوط أن تستتر المرأة عنهما ، حذرا من أن يصفاها لأولادهم ، فيبعثهم ذلك على رؤيتها والاختلاط بها ، وليس فى الآية ذكر الرضاع ؛ وهو مثل النسب فيما تقدم[2] .

أما قوله تعالى : «أَوْ نِسَآئِهِنَّ » فالمراد منه :المسلمات المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائرهن ، أما الكوافر فلا يظهرن لهن إلا ما يظهرنه للرجال الأجانب ، وقال عبادة

---

(١) وعند الشافعية كما ذكره ولى الدين البصير فى كتابه (النهاية) الذى شرح به متن أبى شجاع : أن لهم أن يروا ماعدا ما بين السرة والركبة قياسا على ما يراه السيد من أمته المزوجة ، فقد روى أبو داود وغيره : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا زوج أحدكم عبده جاريته ، أو أجيره فلا ينظر إلى ما بين السرة والركبة ») ونحن لا نوافقهم على هذا القياس غير المتكافىء ، فإن الأمة لا تماثل الحرة ، وغير السيد لا يماثل السيد ، فالحق والأحوط ما قلناه وهو نظر ما يبدو عند المهنة – أى : الخدمة – دون سواه .

(٢) انظر القرطبى والآلوسى .

ابن نُسَيٍّ : كتب عمر -رضىالله‌عنه- إلى أبى عبيدة بن الجراح : أنه بلغنى أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المؤمنين ، فامنع من ذلك وحُلْ دونه فإنه لايحل أن ترى الذمية عِرْيَةَ[1] المسلمة ، فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أَيُّمَا امرأة تدخل الحمام من غير عذر ، لاتريد إلا أن تبيض وجهها ، فَسَودَ الله وجهها يوم تبيض الوجوه .

ونقل الآلوسى عن ابن حجر الشافعى :أن الأَصح تحريم نظر الذمية إلى غير مايبدو من المسلمة فى المهنة – أى . الخدمة – غير سيدتها ومحرمها ، ودخول الذميات على أمهات المؤمنين الوارد فى الأَحاديث الصحيحة دليل لحل نظرها منها مايبدو عند المهنة .

وأما قوله سبحانه : «أَوْمَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » فالمراد منه : الإماءُ ولوكافرات ، وأما العبيد فهم كالأَجانب لايرون من زينة سيدتهن إلا ماظهر منها ، وهذا مذهب أبى حنيفة ، وأحد قولين فى مذهب الشافعى ، قال ابن عباس : لابأْس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وقال سعيد ابن المسيب : لا تَغُرنكُمْ هذه الآية : «أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » إنما عنى بها الإماءُ ولم يعن بها العبيد ، وعلل ذلك بأَنهم فحول ليسوا أزواجا ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم – انظر الآلوسى .

وأما قوله تعالى : «أَوِالتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى‌الْإِرْبَةِ[2] مِنَ الرِّجَالِ » فالمراد بهم :الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من طعام أهلها ، وليست لهم حاجة إلى النساء ، لكونهم شيوخا طاعنين فى السن ، وقد فنيت شهواتهم ، والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم ، فهؤلاء ينظرون من المرأة ما يبدو منها عند المهنة ، أما المجبوب :وهو من قطع ذكره ، والخصى وهو من قطعت خصيتاه ، ففيهما خلاف ، فبعضهم أباح له أن ينظر من المرأة مايبدو عند المهنة كابن الزوج ومن فى حكمه ، ومنهم من جعله فى حكم الأَجانب ، فلا يرى منها غير الوجه والكفين ، وظاهر الثياب – وهذا هو الراجح – انظر الآلوسى .

---

(١) أى :ما يتعرى منها وينكشف .

(٢) الإربة ، والإرب ، والمأربة ، والأرب : الحاجة .

وفسره بعضهم : بالأَبْلَه ، وفسره آخرون : بالصبى الذى لم يدرك ، قال القرطبى : وهذا الاختلاف كله متقارب ، ويجتمع فيمن لا فهم له ، ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء .

وأما قوله تعالى : «أَوِ الطِّفْلِ[1] الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ» فالمراد به : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى عورات النساء ، وما شأنها بالنسبة إلى الرجال ، وفسره الآلوسى بقوله : أى : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها .

وهذا القول قريب مما قلناه ، وعلى هذا وذاك يكون قوله : «لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ» مأخوذا من الظهور ، بمعنى الاطلاع ، وقد جعل كناية عما ذكر .

وفسره ابن كثير بأنهم لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن ، من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لايفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكَّن من الدخول ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : («إياكم والدخول على النساء» قالوا : يارسول الله أفرأيت الحَمو[2] ؟ قال : «الحَمو : الموت») .

ومنهم من فسر (الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ) بالذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الجماع ، وإن كان قادرا على التمييز بين العورات ، من قولهم : ظهر على فلان إذا قوى عليه ، ومنه قوله تعالى : « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » فيشمل الطفل المذكور على هذا الرأى المراهقَ ؛ الذى لم يظهر منه تشوق للنساء ، والأصح عند بعض الشافعية : أنه يلزم الاحتجاب منه كالمراهق الذى ظهر منه ذلك ، وذكروا فى الطفل غير المراهق أنه إن كان قادرا على حكاية العورات وتمييزها فله حكم المحرم فى النظر ، وإلا فهو كالعدم ، فيباح فى حضوره مايباح فى الخلوة[3]

(١) الطفل : اسم مقترن بأل الجنسية ، وقد يراد به الجمع كما هنا ، فهو بمعنى الأطفال ، ولهذا وصف بالجمع .

(٢) الحمو ، والحم : أقارب الزوج ، وإذا كان رأى النبى — صلى الله عليه وسلم — ما ذكر فى أبى الزوج وهو من المحارم فكيف يسمح بدخول غيره البيت ورؤيته نساءه ؟ .

(٣) انظر الآلوسى فى تفسير هذه الجزئية من الآية

وأما قوله تعالى : «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ » فمعناه أنه لايحل للنساء أن يضربن الأرض بأرجلهن لتُسمع غيرها صوت خلخالها وتعلمه ماتخفيه من زينتها ، فإسماع صوت الزينة كإبدائها فى الحرمة بل أشد ، لأنه يغرى الرجال بهن ،لما فيه من إيهام أن لهن ميلا إليهم ، واستدعاء لهم ، أخرج ابن جرير الطبرى بسنده عن حضرمىٍّ (أن امرأة اتخذت خَلخَالا من فضة ، واتخذت جَزْعًا فى ساقها ، فمرت بقوم فضربت برجلها ، فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت ، فأنزل الله «وَلَا يَضْرِبْنَ ...» الآية ، والجزع : خرز فيه بياض وسواد تُشَبَّه به العيون ، ويفهم من سبب النزول أن الجزع كان منظوما فى خيط حول الساق ، وأن الخلخال كان فى أعلاه فلما ضربت الأرض برجلها وقع الخلخال عليه فصوَّت .

قال الآلوسى فى تعليقه على هذا الأثر : والنساءُ اليوم على جَعْل الجزع ونحوه فى جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا صوَّت ... الخ .

وكان النساءُ فى عصرنا هذا يتخذْن خلاخيل من ذهب أو فضة لها جلاجل مرتبطة بها ، تجلجلُ وتصوت عند مشيهن ، ثم تلاشت هذه الحلية أو كادت .

وكما يحرم على المرأة تنبيه الرجال إليها بضرب الأرض برجلها ، يحرم عليها تنبيههم بنحو التطيب عند خروجها ، قال – صلى الله عليه وسلم – : «كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا يعنى زانية[1] » والحديث حسن صحيح .

(وَتُوبُوٓا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : أى وقل أيها النبى للمؤمنين فى ضمن ماكلفوا به فى هذه الآية – قل لهم – : توبوا إلى الله تعالى مما عسى أن تكونوا قد ارتكبتموه مما نهيتم عنه فيها ، ولا تتخلوا عن المتاب من آن لآخر ، فإنكم لاتخلون من التقصير فى حقوق الله – تعالى – لعلكم بالتوبة تفلحون ، وتفوزون بما تأملونه من السعادة فى الدارين .

---

(١) انظر ابن كثير ، والحديث فى تحفة الأحوذى – أبواب الاستئذان– باب : ما جاء فى خروج المرأة متعطرة .

والمعنى الإجمالى للآية : وقل أيها الرسول للمؤمنات : اخفضن أبصاركن وامنعنها من النظر إلى الرجال إلا مايبدو منهم عادة ، من غير إمعان ولا اشتهاء ، وقل لهن أيضا : يحفظن فروجهن بمنعها عن الزنى ، وسترها عن العيون بثياب لا تحكيها ، ولا يظهرن زينتهن للرجال الأجانب إلا ماظهر منها ، وهو الوجه والكفان والثياب الخارجية الفضفاضة ، وعليهن أن يسترن أعناقهن وما تظهره فتحات صدورهن من أجسادهن ، بسترها بخُمُرِهِنَّ أى : بأغطية رءوسهن ، ولا يظهرن زينتهن الداخلية إلا لأزواجهن أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوتهن ، أو أبناء إخوتهن ، أو أبناء أخواتهن ، وهؤلاء غير متساوين فى النظر ، فالأزواج ينظرون ماشاءوا من أجسادهن وما عليها ، أما غيرهم ؛ فلا ينظرون منهن إلا مايبدو عند المهنة .

ويباح لهن إبداء مثل ذلك للنساء المؤمنات ، أما الكوافر فهن مثل الرجال الأجانب فى نظر الوجه والكفين وظاهر الثياب دون سواها ، وقيل : مثل المحارم فى نظر مايبدو عند المهنة ، كما يباح للنساء المؤمنات إبداء مايظهر عند المهنة للرجال الذين يتبعون البيوت ، ليصيبوا من طعام أهلها وبرهم ، ولا يشتهون النساء ، كالرجال الواغلين فى الشيخوخة ، الذين فقدوا الحاجة إلى فراش النساء ، وكالممسوح والأبله ، أما التابعون من ذوى الإربة والحاجة إلى النساء ، فلا ينظرون من المرأة أكثر من وجهها وكفيها ، وظاهر ثيابها الفضفاض كسائر الأجانب .

ويباح للنساء المؤمنات أيضا إبداء زينتهن للأطفال الذين لايفهمون عورات النساء ووظيفتها ولا يدركون الفوارق بين العورات ، ولا يفهمون الغرض مما تبديه المرأة من مظاهر أنوثتها .

ويحرم عليهن أن يضربن الأرض بأرجلهن ، ليسمع الناس جلجلة خلاخيلهن ، ويعرفوا ماتخفينه من زينتهن فإن ذلك يوهم رغبة المرأة فى الصلة بهم ، ويطمعهم فى غشيان بيتها .

وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون جميعا ؛ من مختلف الذنوب والمعاصى ، لعلكم بالتوبة تظفرون برضوان رب العالمين .

(وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ) : الأيامى جمع أَيِّم ، وهو من لا زوج له ذكرا كان أو أنثى ، سبق له الزواج أو لم يسبق ، وإنكاحهم تزويجهم .

(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ) : المراد بهم من يصلحون للقيام بحقوق النكاح من عبيدكم وجواريكم .

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : كثير الرزق والإنعام .

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا) : وَليجتهد فى العفة من لايجدون أسباب النكاح.

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ) : وَالمماليك الذين يريدون مكاتبتكم على العتق فى مقابل عوض يؤدونه لكم ، فكاتبوهم وتعاقدوا معهم .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) : ولا تكرهوا إماءكم على الزنى .

(إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) : أى إن أردن تعففا .

(فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإن الله من بعد إكراهكم لهن غفور لهن رحيم بهن ، حيث يعفو عنهن لأنهن مكرهات على البغاء .

التفسير

٣٢ـ (وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

لما نهى الله عما يفضى إلى السفاح المخل بالنسب ، عقبه بالحث على النكاح منعا من الانحراف إلى الإثم ، وحفظا لطهارة النسب ، والخطاب فى الآية موجه إلى الأولياء والسادة ، فالأولياء مطالبون بتزويج الحرائر والأحرار بعد استئذانهم أو التماسهم ، ولابد فى إذن الثيب الحرة أن يكون صريحا ، أما البكر فيكفى صمتها مع الرضا ، ويباشر الحر البالغ عقده بنفسه ، ويباشر الولى العقد عن موليته عند الأكثرين ، لقوله ـصلى الله عليه وسلمـ : «لانكاح إلا بولى» .

والسادة مكلفون بتزويج عبيدهم وإمائهم الصالحين إن طلبوا ذلك ووجد السادة فيهم خيرا ، وأمر السادة بإنكاح أرقائهم الصالحين على التجويز والإباحة عند الأكثرين كما ذكره القرطبى فى المسألة الرابعة .

والنكاح مباح عند الشافعية ، فإنه قضاء لذة كالأكل والشرب ، مالم توجبه الضرورة كخوف العنت ، أى : الزنى ، ومستحب عند الحنفية والمالكية ، لقوله ـصلى الله عليه وسلمـ فى الحديث الصحيح : «فمن رغب عن سنتى فليس منى» مالم توجبه الضرورة كما تقدم ، وفى المسألة تفصيلات مفيدة عند الفقهاء فليرجع إليها من شاء .

والمراد من صلاح العبيد والإماء معناه اللغوى ، وهو : صلاحهم للقيام بحقوق النكاح ، وقيل : المراد صلاحهم الدينى ، ليكونوا جديرين بعناية مواليهم وإشفاقهم عليهم .

ثم بين سبحانه أن الفقر فى الخاطب أو المخطوبة لا يمنع من المناكحة ، فإن المال غاد ورائح ، ولا حرج على فضل الله فى أن يغنى الفقير ، ولهذا زوج النبى -صلى الله عليه وسلم- امرأة برجل فقير لايملك ولا خاتما من حديد ، على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن .

وجنح بعض المفسرين إلى أن الآية وعد من الله بالإغناء ، لكن ذلك مشروط بمشيئة الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى : «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[1] .

ثم ختم الله الآية بقوله :(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : للإيذان بأنه لاينبغى عدم اليأس من فضل الله فإنه سبحانه ذو سعة فى الغنى والقدرة فلا حرج على فضل الله - عليم بأحوال عباده ، يمنحهم من رِفْدِهِ ماعلمَ أنه يصلح من أمرهم .

والمعنى الإجمالى للآية : وزوِّجُو أيها الأولياء من تتولون أمرهم من الحرائر والأحرار غير المتزوجين إن طلبوا ذلك ، ولا تمنعوهم حقهم فى سنة الله وفى إعفافهم ، وزوجوا الصالحين للنكاح من عبيدكم وإمائكم ، والفقر ليس بمانع من زواج الأحرار ، إن يكونوا فقراء فالله قادر على أن يغنيهم من فضله إن شاء ، والله واسع الغنى والقدرة ، عليم بأحوال عباده فلا يخفى عليه محتاج ، ولا تضيق موارد رزقه على الفقراء ، فهو كافل الأرزاق لجميع مخلوقاته .

٣٣- (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ . .) الآية .

تتضمن هذه الآية ثلاثة آداب للمؤمنين ، أولها : فيمن لايجد أهبة النكاح ، وثانيها فى حث السادة على مكاتبة أرقائهم ومساعدتهم إن علموا فيهم خيرا ، وثالثها فى منعهم من إكراه إمائهم على البغاء ، وفيما يلى الكلام على الجزء الأول من الآية .

المراد من كونهم لايجدون نكاحا : أنهم لايجدون أسبابه من مهر ونفقة[2] ، وقد

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨

(٢) وهو إما من إطلاق النكاح على ما تنكح به المرأة من مهر ونفقة، كإطلاق اللباس على ما يلبس ، واللحاف على ما يلتحف به ، أو بتقدير مضاف .

طلبت الآية ممن لايجدون أسباب النكاح مع توقانهم إليه ، أن يجتهدوا فى العفة والبعد عن الزنى ، وذلك بالاستعانة بالصيام كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1]

أو بالاستعانة بالصبر حتى يغنيهم الله من فضله فيتزوجوا ، وذلك خير لهم من الإقدام على الزواج مع الفقر ، انتظارا لفضل الله حسب وعد الله فى الآية السابقة ، فإنه وعد مشروط بمشيئة الله تعالى ، فإن شاء حققه وإن لم يشأ لم يحققه ، حسبما تقتضيه حكمته تعالى ، وقد أمر الله بالسعى فى قوله تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »[2]

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِىَ آتَاكُمْ) :

هذا هو الجزء الثانى من الآية ، وهو تأديب وإرشاد منه تعالى للسادة فى حق أرقائهم أن يكاتبوهم ذكورا كانوا أو إناثا على العتق فى مقابل جُعْل يؤدونه لسادتهم مُنَجَّماً ، أو مرة واحدة فى آخر مدة الكتابة أو نحو ذلك .

وصورة المكاتبة أن يقول السيد لمملوكه : كاتبتك على أن تؤدى مائة دينار مثلا ، فإذا أديتها عتقت ، فيقبل العبد ، وهذا القول يسمى مكاتبة وإن لم يكتب فى سجل لأنها بمعنى المعاقدة والعهد ، كما فى قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » أى : عقد على نفسه عهدا بذلك ، وقيل : سمى بذلك لأنه مما يكتب .

والمكاتبة إسلامية الأصل ، فلم تكن فى الجاهلية كما نقله الخفاجى عن الدميرى وكذا قال ابن حجر ، وأول من كاتبه المسلمون؛ عَبْدٌ لعُمر يسمى أبا أُمية[3] ، وقيل : نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له : صبَيح ، طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى ،

(١) من حديث أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) سورة الملك من الآية : ١٥

(٣) انظر الآلوسى .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فكاتبه حويطب على مائة دينار ، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها ، وقتل بحنين فى الحرب ، ذكره القشيرى ، وقال مكى : هو صبيح القبطى غلام حاطب بن أبى بلتعة[١]

وسواء أكان للآية سبب نزول أم لم يكن ، فإن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن يكاتبوا أرقاءهم إن طلبوا منهم ذلك ، وعلم سيد كل عبد منه خيرا ، فإن طلبها الرقيق وأباها سيده ، فله ذلك ؛ لأن إجابته ليست بواجبة بل مَنْدوبة عند أكثر العلماء - كما حكاه البيضاوى - وعَلله ؛ بأن الكتابة معاوضة تتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها من المعاوضات إلا عن تراض[٢] ، وقال جماعة : بوجوبها عملا بظاهر النص ، ومنهم عكرمة وعطاء وعمرو بن دينار ، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، واختاره الطبرى ، واحتج داود أيضا بأن سيرين والد محمد بن سيرين ، سأل أنس بن مالك المكاتبة وهو مولاه فأبى أنس ، فرفع عمر عليه الدِّرة فكاتبه أنس ، قال داود : وما كان عمر ليرفع عليه الدرة فيما لايباح له أن يفعله .

والمراد بعلم السادة الخير فى أرقائهم : أن يعرفوا فيهم الدين والقدرة على الاكتساب والوفاء بماتعاقدوا عليه مع سادتهم ، وكان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أتأمرنى أن آكل أوساخ الناس - يعنى صدقاتهم - وبعث عمر بن الخطاب إلى عامله عُمَيْر بن سعد أن ينهى المسلمين أن يكاتبوا أرقاءهم على مسألة الناس ، وكرهه الأوزاعى ، وأحمد ، وإسحاق ، ورخص فيه مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعلىٌّ - رضى الله عنه - وفى رواية أخرى عن مالك : أنه كره مكاتبة الأمة التى لاحرفة لها لما تؤدى إليه من فسادها .

وقد رد من قال بجواز مكاتبة من لاحرفة له على المانعين بحديث روته الصحاح عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : (دخلَتْ علىَّ بريرة فقالت : إن أهلى كاتبونى على تسع أَوَاقٍ فى

(١) انظر القرطبى .

(٢) وقال القرطبى : إن تعليق الأمر بالكتابة على شرط أن يعلم السيد أنّ فى العبد خيرا يصرفه عن الإيجاب لأنّ الخير أمر باطنى لا سبيل إلى علمه يقينا فللسيد أن يقول : لم أعلم فيك خيرا فيرجع إلى قوله . انظر المسألة الثالثة فى القرطبى .

تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعينيني ...) الحديث ، ففيه دليل على مكاتبة الأمة وهي لا حرفة لها ، ولم يسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - هل لها حرفة أم لا ؟ ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ، لأنه بعث مبينا معلما[(١)] .

وظاهر الآية صحة المكاتبة على تنجيم المال - أي : تقسيطه - وعلى دفعه كله حالاً أو مؤجلا ، وبهذا أخذ الحنفية ، أما الشافعية فقد أوجبوا تنجيمه بنجمين فأكثر ، فلا تجوز عندهم بدون أجل ، أما الكتابة على مال حال فلا تجوز عندهم ، لأن الرقيق لا مال له ، فكيف يكاتب على ما يتعذر عليه دفعه ، فيكون ذلك سببا لعودته إلى الرق .

وقد طلب الله إلى الموالى أن يبذلوا لأرقائهم الذين كاتبوهم شيئا من أموالهم ، وفي معناه حَطُّ شيء من مال الكتابة ، وهو للوجوب عند الأكثرين ، ويكفي فيه أقل متمول ، وعن علي - رضي الله عنه - : يحط الربع ، وقيل : يحط الثلث ، وقيل : هذا أمر لكافة المسلمين بإعانة المكاتبين ، وإعطائهم سهمهم من الزكاة ، ويَحِلُّ للمولى وإن كان غنيا ، لأنه لا يأخذه صدقة - كالدائن والمشترى[(٢)] .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

المراد من الفتيات هنا : الإماء ، وسبب نزول هذا النهي ؛ ما أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر - رضي الله عنه - أن جارية لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها : مُسَيْكَة ، وأخرى يقال لها : أُمَيْمَة كان يكرههما على الزنى ، فشكتا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : كان لعبد الله بن أُبَيٍّ جاريةٌ تدعى مُعَاذة ، فكان إذا نزل ضيف أرسلها له ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له ، فأقبلت الجارية إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فشكت ذلك إليه ، فذكره أبو بكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأمره بقبضها ، فصاح عبد الله بن أُبَيٍّ من يعذرني من محمد يغلبنا على مماليكنا ؟ فنزلت ،

---

(١) انظر المسألة الخامسة في القرطبي .

(٢) انظر البيضاوي .

وروى : كانت له ست جوار : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعَمْرَة ، وأَرْوَى ، وقُتَيْلَة ، يكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب ، وروى عن على وابن عباس أنهم كانوا فى الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنى ، ويأْخذون أُجورهن فنهوا عن ذلك فى الإسلام ، إلى غير ذلك من الروايات والآية عامة الحكم وإن نزلت بسبب خاص .

وليس قوله تعالى : « إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » شرطا لتحريم الإكراه فى الحقيقة ، فإن الإكراه على الزنى حرام فى كل حال ، بل المراد منه تهويل جريمة سادتهن ، حيث أكرهوهن على الزنى مع رغبتهن فى العفة ـ كما جاء فى سبب النزول[(١)] .

والمعنى الإجمالى للآية : وليجتهد فى العفة وكبح النفس عن شهواتها ، من لا يجدون أَسباب النكاح من صداق أَو نفقة أَو زوجة مناسبة لحالهم ، أَو مسكن يؤويهم وذلك بالاشتغال بتقوى الله ، وليصبروا حتى يغنيهم الله من فضله ، وعليهم أَن يأْخذوا فى أَسباب الغنى ليغنِيَهم الله تعالى فيتزوجوا عن غنى ، والأَرقاءُ الذين يرغبون فى أَن يكاتبهم سادتهم على العتق فى مقابل جُعْلٍ يبذلونه لسادتهم ، فعلى هؤلاءِ السادة أَن يكاتبوهم إن عرفوا فيهم خيرا فى الدين وقدرة على السداد ، ووفاءً بالعقد ، وأَن يعطوهم من مال الله الذى آتاهم ، ولو بالنزول عن بعض العوض الذى كاتبوهم عليه ، وليساعدهم المؤمنون ببعض زكاة أَموالهم أَو بالتصدق عليهم .

ولا تكرهوا ـ أَيها المسلمون ـ جواريكم على الزنى إن أَردن تعففاً ـ كما فعله بعضكم ـ يبتغون بذلك متاعا فاسداً من متاع الحياة الدنيا ، ومن يكرههن على الزنى ، فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن رحيم بهن ، لأَنهن مُكْرَهَاتٌ عليه ، أَو غفور رحيم للتائبين من السادة الذين أَكرهوهن .

٣٤ ـ (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) :

هذا كلام مستأْنف جيءَ به لبيان وضوح الآيات السابقة وجلالة قدرها ، وصدر بلام القسم وقد ، لإبراز كمال العناية بشأْنه ، أَى : وبالله لقد أَنزلنا إليكم فى هذه السورة

(١) ومما قيل فى الجواب عن قوله تعالى : « إن أردن تحصنا » : أنه شرط لا مفهوم له ؛ حيث أبطله الإجماع على تحريم الإكراه على البغاء مطلقا

الكريمة آيات موضحات لما تحتاجون إلى إيضاحه من الحدود وسائر الأحكام والآداب ، وأنزلنا إليكم مثلا من قبيل أمثال الذين مضوا قبلكم ، كقصة عائشة التى تماثل قصة مريم ، وقصة يوسف – عليهما السلام – حيث أسند إليهما ما أسند إلى عائشة – رضى الله عنها – ، وأنزلنا إليكم فيها ما يتعظ به المتقون ، ويبتعدون عن المحرمات والمكروهات ، فهم المنتفعون بأنوارها وعظاتها .

وقيل : المراد بالآيات المبينات ، والمثل ، والموعظة : جميع ما فى القرآن منها ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

* ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : الله هادى أهل السموات والأرض ، وللكلام بقية فى الشرح . (كَمِشْكَاةٍ) : المشكاة : موضع الفتيلة من القنديل ، وهذا هو المعنى المشهور ، ولهذا قال بعده : (فِيهَا مِصْبَاحٌ) : وهو الفتيلة التى تضىء ، وسيأتى فى الشرح مزيد بيان . (كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) : كوكب مضىء متلألىء كالزُّهَرة[1] فى صفائه ولمعانه . . .

(١) الزهرة – بضم الزاى المشددة وفتح الهاء – : نجم قوى النور عظيم التألق واللمعان .

(مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ) : من شجرة كثيرة الخير . (لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ) : أى أنها مكشوفة للشمس شرقاً وغرباً ، فليست شرقية فحسْبُ ، ولا غربية كذلك فتحرم من ضوء الشمس فى أيهما – وسيأتى بسط الحديث فيها .

(وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) : ويبين الله الأشباه والنظائر لهم .

التفسير

٣٥ – (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . . .) الآية .

منذ بدأت هذه السورة ، ونحن نرى فيها نور الهدى والرشاد ، فقد رأينا فيها آيات بينات تحمى الأعراض ، وتصون الأنساب ، وتزجر المعتدين عليها بما فرضته من عقوبات ، كما رأينا آيات كريمة تحث على صيانة الألسنة عن قالة السوء فى المؤمنين والمؤمنات ، وعقوبة القاذفين لهم ، وقرأنا فيها آيات الاستئذان على البيوت ، وتحريم دخولها دون استئذان ، ووجوب غض الأبصار عما يحرم النظر إليه من النساء والرجال ، إلى غير ذلك من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق .

وقد جاءت هذه الآية لتقرر أن هذه الأحكام وأمثالها : هى من نور الله وهدايته لعباده المؤمنين ، فإنها كمشكاة فيها مصباح عظيم الضياء ، فهى تضىء قلوب المتقين ، وتكشف الظلام عنها ، كما يكشف الكوكب الدرى الظلام بنوره .

كما جاءت لتبين أنه – تعالى – يهدى لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس تقريرا لأحكامه وتنويرًا لهم ، لعلهم يتذكرون .

والنور فى الأصل : كيفية يدركها البصر ، ويدرك بسببها الْمبْصَرَاتِ ، مثل الكيفية التى تنبعث من الشمس والقمر على الأجرام الكثيفة المقابلة لهما ، أو من المصباح على ماحوله ، والنور بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى ؛ لأن النور مدرك بالأبصار ، والله تعالى يقول : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » وبالجملة فالله تعالى منزه عن الجسمية والكيفية ولوازمهما ، ولعدم صحة إطلاق النور بمعناه اللغوى المذكور على الله تعالى ، اختلف العلماء

فى تفسيره فى الآية ، فمنهم من فسره بالهداية ، مراعاة لسياق الآية مع ما قبلها ، وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس - رضى الله عنهما - فقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات : عن ابن عباس أنه قال : « اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : هادى أهلهما . قال الآلوسى : وهذا وجه حسن : انتهى . ونرى أن هذا الرأى مناسب لما سبق وما لحق من الآيات ، ويكون إطلاق النور على الله - تعالى - فى هذا الرأى على سبيل المجاز .

وقال آخرون : « اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » معناه : مَنَوِّرُهُمَا ، فإطلاق النور على الله تعالى بهذا المعنى على سبيل التجوز أيضاً ، كما تقول : زيد عَدْلٌ ، بمعنى : عادل ، على سبيل المجاز ، ويرشح هذا المعنى أنه قرأ بعض القراء : (اللَّهُ مُنَوِّر السمَآءِ وَالْأَرْضِ) .

وقد نورهما الله - تعالى - بالكواكب والنجوم ، حيث جعلها تلقى أشعتها على الأجرام المقابلة لها ، كما نوّر الأرض بالمصابيح التى هدى عباده إلى اختراعها على اختلافها قوة وضعفاً ، وكِبَرا وصِغَرا ، وطولا وقِصَرا .

ويتناول النور على الوجه الأول وحيه - تعالى - إلى ملائكته وأنبيائه ، وهداية كل شىء لما خلق له ، كما قال - تعالى - حكاية لما قاله موسى لفرعون : « رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »[1] وفى هذا الجزء من الآية آراء أُخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) : المقصود من النور هنا : الهدى القلبى الناشئ عن النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وعن التأثر بمواعظ القرآن العظيم ، وسنة النبى الكريم ، فإن الهدى الناجم عن ذلك يذهب بظلمات الحيرة والشك والوسوسة التى تغشى القلوب ، ويحِلُّ محلها الإيمان الذى لا تهزه العواصف ، ولا تقصفه الرياح القواصف ، ومَثَله فى ذلك مثل النور الحقيقى الذى تنجاب

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٠

به الظلمات ، وتَبينُ به المرئيات على حقائقها ، والضمير فى « نُورِهِ » عائد إلى الله ـ تعالى ـ[1] فإن الهدى هداه « وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ » .

والنور بهذا المعنى هو المشبه بالمشكاة ، وهو الذى جنح إليه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ؛ فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس أنه قال : « مثل نوره : مَثَل هداه فى قلب المؤمن » وبه قال أنس ، أخرج ابن جرير عنه أنه قال : (إلهى يقول : نُورى هُدَاى) ونقل الآلوسى أن تفسيره بالهدى هو اختيار الأكثرين ، والمشكاة : هى موضع الفتيلة من القنديل ، وقد نقله ابن كثير عن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وغيرهما ، وقال : إنه هو المشهور ، ولهذا قال بعده : (فِيهَا مِصْبَاحٌ) وهو الذُّبَالَةُ[2] التى تضىءُ ، وقيل : هى الكُوة فى الحائط غير نافذة ، وعزاه القرطبى إلى الجمهور ، وقال : إنها بهذا المعنى أجمع للضوء ، ونقل القرطبى عن مجاهد أنها هى القنديل ، وقد اشتهرت بهذا المعنى فى عصرنا ، وتفسير المتقدمين للمصباح بالزبالة ، أى : فتيلة القنديل ، ملاحظ فيه أن المصابيح فى هذا الزمان كانت كذلك ، ولهذا جاء فى النص الكريم أن هذا المصباح « يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ » .

وقد بين الله ـ تعالى ـ أن هذا المصباح فى زجاجة ، وهى القنديل ، وقد وصف الله زجاج القنديل بالصفاء والزُّهْرَة الفائقة ، حيث قال : « الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ » ومن هذا القنديل الشفاف ينفذ ضوءُ المصباح إلى ما حوله .

والمراد بالكوكب الدرى : أحد الكواكب التى يطلق عليها العرب الدرارىّ ، مثل : المشترى ، والزهرة ، وهى منسوبة إلى الدُّرَّة ، لبياضها وزُهْرَتِها وحسنها .

وتشبيه الزجاجة بالكوكب الدرى يحتمل معنيين : أحدهما : أنها بما فيها من المصباح تشبهه ، وثانيهما : أنها لصفائها وجودة جوهرها تشبهه ، قال القرطبى : وهذا التأويل أبلغ فى التعاون على النور .

---

(١) أجاز بعض العلماء رجوع الضمير إلى المؤمن ، وروى ذلك عن ابن عباس فى إحدى الروايات عنه كما روى عن أبى بن كعب ، وكان يقرأ : (مثل نور المؤمن) وهناك أقوال أخرى فى مرجع الضمير ، فقيل : هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل : هو القرآن ، وما ذكرناه من رجوعه إلى الله هو الموافق لظاهر النص القرآنى .

(٢) أى : الفتيلة .

وقد بين الله أن هذا المصباح (يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ) : أى يوقد من زيتها ، والمقصود بها : الجنس من شجرة الزيتون ، وبركتها إما كثرة منافعها ، وإما لأنها تنبت فى الأرض التى بورك فيها للعالمين ، وعلى أى حال فهى كثيرة المنافع ، روى عن ابن عباس أنه قال : فى الزيتونة منافع : يسرج بالزيت ، وهو إدام ودهان ودباغ ، ووقود ـ يوقد بحطبه وتُفْلِه ـ وليس فيه شئ إلا وفيه منفعة ، حتى الرماد يُغْسَل به الإبريسم . . . إلخ . والإبريسم : الحرير .

وقد جاء فى زيتها حديث أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ، والترمذى وابن ماجه ، عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قال : « ائتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

وقد وصف الله الزيتونة بقوله : (لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) :فأما كونها غير شرقية وغيرغربية ،فالمقصود : أنها مكشوفة للشمس ، لايحجبها عنها جبل ولا شجر ، من حين تطلع حتى تغرب ، وذلك أحسن لزيتها ، فهى ليست خالصة للشرق حتى يقال فيها : شرقية ، ولا خالصة للغرب حتى يقال فيها : غربية ، بل هى شرقية غربية .

وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن شجر الشام لاشرقى ولا غربى ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهو الأرض المباركة . وهذا رأى حسن .

وقد وصف الله زيتها بقوله : « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » تأكيدا لصفائه وجودة النور المنبعث عنه ، وبهذا الوصف اكتملت الأنوار للمشكاة ، فكان أمرها كما قال تعالى : (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) : فقد اجتمع فيها ضوءُ المصباح إلى ضوءِ الزجاجة إلى ضوءِ الزيت ، فكانت كأنْوَر ما يكون ، فكذلك براهين الله ـ تعالى ـ واضحة تستضئ بها القلوب وتهتدى ، وهى برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، بإرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، والوعظ المتكرر ، وآيات الله فى الأنفس والآفاق .

ولما كان الناس مختلفين فى معرفة الهدى والرشاد ، متباينين فى إدراك الحق والضلال ، عقب ذلك بقوله : (يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ) : أى يوفق الله لإصابة الحق ومعرفته والاستجابة إليه – يوفق – من يشاء من عباده ، ممن حسنت نيته ، وطابت طويته ، وذلك بإلهامه الاقتناع به ، وشرح صدره إليه ، بعد أن وفقه إلى حسن النظر فى آياته التى نور الله بها السموات والأرض ، وفيما أنزل على رسوله من نور القرآن كما قال – تعالى – : «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » حتى اطمأن بها فؤاده ، واهتدى إلى الحق والرشاد . وفى ربط الهداية بمشيئة الله – تعالى – إيذان بأن مناطها هو مشيئته ، وليست الأسباب وحدها ، فهو أعلم بمن يستحقها ، قال الشاعر :

إذا لم يَكُ التوفيق عونا لطالب طريقَ الهدى أعيت عليه مطالبه

أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصابه يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله – عز وجل – » .

وقد ختم الله الآية بما يدل على أن إطلاق لفظ ؛ (النور) على الآيات والبراهين من قبيل ضرب الأمثال ، فقال – سبحانه – : (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) : أى يبين الله الأشباه والنظائر من الحسيات ، تمثيلا للمعانى عند إرادته – تعالى – هداية الناس وإرشادهم إلى الحق – كالذى جاء فى الآية من تشبيه ما تحدثه الآيات من نور الهدى فى القلوب ، بنور المشكاة ؛ لما لها من الأثر العظيم فى إرشاد الخلق إلى الحق .

وختم الآية بقوله – سبحانه – : (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) أى : أنه – تعالى – يعلم الأشياء جميعها حقائقها ومجازاتها ، وما ينبغى التعبير عنه بأسلوب المجاز ، وما ينبغى التعبير عنه بأسلوب الحقيقة ، كما يعلم من يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

أخرج الإمام أحمد بسنده ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « القلوب أربعة : قلب أجْرَد ، فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغْلَف ، مربوط على

غلافه ، وقلب مَنْكوس ، وقلب مصْفَح ، فأما القلب الأجرد[1] ، فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف ، فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس ، فقلب المنافق – عرف ثم أنكر – وأما القلب المصْفَح[2] ، فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومَثَل الإيمان فيه كمثل البَقْلة يمدها الماء الطيب ، ومَثَل النفاق فيه كمثل القَرْحَةَ يمدها القيح والدم ، فأى المَدَّتَيْنِ غلبت على الأُخرى غلبت عليه » قال ابن كثير : إسناده جيد .

المعنى الاجمالى للآية :

الله هادى أهل السموات إلى معرفته ومعرفة ماتستقيم به مصالحهم ، وما يحققون به ماوُكل إليهم ، مَثَل هدايته خلقه إلى ذلك ، كمثل نور مشكاة فيها مصباح مضىءُ . وهذا المصباح داخلَ زجاجة تشبه فى صفائها وقوة شعاعها الكوكب الدرى ، وهو يوقد من زيت شجرة مباركة كثيرة المنافع ، هى شجرة الزيتون ، تلك الزيتونة تتمتع بضوء الشمس وحرارتها فى مشرقها ومغربها فيجود بذلك زيتها ، وقد بلغ من شدة صفاء هذا الزيت أنه يكاد يضىءُ ولو لم تمسسه نار وقد أصبح نور المشكاة بذلك مضاعفاً ؛ فهو نور فوق نور ، يهدى الله للانتفاع بهداه من يشاءُ ممن رق حِسُّه ، وحسن استعداده ، وطابت سريرته ، دون من عداه ممن لم يكترث بهداه ، ويضرب الله الأمثال الحِسِّية للناس حين يهديهم إلى الحق والخير ، لعلهم يهتدون إلى ما أرشدهم إليه مما ينفعهم فى أُخراهم ودنياهم ، فتستنير قلوبهم وتصفو أرواحهم

(١) المراد من كونه أجرد : أنه على أصل الفطرة ، فنور الإيمان يزهر فيه .

(٢) المصفح : الذى له وجهان ، يلقى أهل الإيمان بوجه ، وأهل الكفر بوجه ، وصفح كل شىء : وجهه وناحيته .

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفـردات :

(فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ) : المراد بها المساجد ، والإذن برفعها : الأمر برفع شأنها وتعظيمها . (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) : الغُدوَةُ أول النهار ، والغُدُوُّ : الإقبال فى الغُدْوة ، والآصال : جمع الأصيل ، وهو آخر النهار . (تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) : تضطرب فيه من شدة الهول . (أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) : أحسن جزاء ما عملوه .

التفسير

٣٦ ـ (فِى بُيُوتٍ[١] أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) :

لما بين الله تعالى فى الآية السابقة أن هدايته لعباده إلى معرفته تشبه مصباحا فى زجاجة جاء بهذه الآية ليبين أثر هدايته لهم ، وهو تسبيحهم إياه فى بيوت أذن برفعها ، ونقاء سيرتهم وسريرتهم ؛ فهى استئناف مبين لأثر الهداية فيهم .

---

(١) (فى بيوت) متعلق بـ (يسبح) ولفظ : (فيها) تكرير لقوله : (فى بيوت) جىء به للتأكيد والتذكير بما تقدمها ، والإيذان بأن التقديم للاهتمام لا الحصر .

والمراد بالبيوت : المساجد مطلقاً ، وقيل : هى المساجد الأربعة التى لم يَبْنِها إلا نبى[1] ، وهى : الكعبة ، ومسجد المدينة ، ومسجد قباء ، وبيت أريحا[2] ، حكاه القرطبى فى آخر المسألة الأولى عن ابن بريدة ، وعقبه بقوله : الأظهر الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أحب الله ـ عز وجل ـ فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ، ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد ؛ فإنها أَفْنِيَةُ الله ، أبنيته أذن الله فى رفعها ، وبارك الله فيها ، ميمونةٌ ميمونٌ أهلها ، محفوظة محفوظ أهلها ، هم فى صلاتهم ، والله ـ عز وجل ـ فى حوائجهم ، هم فى مساجدهم ، والله من ورائهم » .

والمراد من إذن الله برفعها : أمره بتعظيمها ، وذلك بتطهيرها من الأقذار والنجاسات ، ومنع الجنب والحائض والنفساء من دخولها ، ومنع البيع والشراء ورفع الصوت فيها ، والامتناع عن أكل ذى ريح كريه قبيل دخولها ، وفى المسألة كلام طويل يطلب من الموسوعات من كتب الفقه والتفسير .

وحمل بعض المفسرين رفعها على رفع بنيانها ، كما فى قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » وبه قال مجاهد وعكرمة ، وفى بناء المسجد يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن عثمان بن عفان .

وهل يجوز تزيين المساجد ونقشها ؟ قال القرطبى فى المسألة الثالثة : اختلف فى ذلك ، فكرهه قوم ، وأباحه آخرون ، واستند من كرهه إلى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقوم الساعة حتى تتباهى الناس فى المساجد » أخرجه أبوداود بسنده عن أنس . وفى البخارى : وقال أنس : « يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا » .

واستند من قال بإباحتها إلى أن فيها تعظيم المساجد ، والله أمر بتعظيمها بقوله : « فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ » وروى عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ (أنه بنى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالساج وحسنه) .

(١) وهذا هو رأى ابن زيد ، أخرجه ابن أبى حاتم عنه ـ انظره فى الآلوسى ولعله تصحيف لابن بريدة ليتفق مع ما ذكره القرطبى عنه كما سيجىء .

(٢) المراد به : بيت المقدس ، بناه داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

والساج : شجر ينبت ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين لا تكاد تبليه الأرض .

وقال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب ، وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - وبالغ فى عمارته وتزيينه ، وذلك فى زمن ولايته المدينة قبل الخلافة ، ولم ينكر عليه أحد .

ومن تعظيم المساجد : الدعاء عند الدخول والخروج ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى أسيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

ومن تعظيمها : صلاة ركعتين لله تعالى قبل الجلوس ، روى مسلم عن أبى قتادة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » .

والمراد بالتسبيح فيها بالغدوّ والآصال : الصلوات فيها بالغُدوَات ، أى : أوائل النهار ، وبالعشيّات : أواخره ، وقيل : المراد به : تنزيه الله ومراقبته والاشتغال بطاعته .

والغدوّ فى الأصل : مصدر ، أطلق مجازا على وقته ، ولذا حسن اقترانه بالآصال ، جمع : الأصيل ، وهو : العشىّ ، وسيأتى المعنى الإجمالى لهذه الآية مع الآيتين بعدها ، لشدة اتصالها بهما .

٣٧ - (رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...) الآية .

رجالٌ : فاعل لقوله : (يُسَبِّحُ) فى الآية السابقة ، وخص الرجال بالذكر ؛ لأن النساء لا حَظَّ لهن فى المساجد ؛ إذْ لا جمعة عليهن ولا جماعة ، وصلاتهن فى بيوتهن أفضل ، أخرج الإمام أحمد ، والبيهقى : عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « خير مساجد النساء قَعْر بيوتهن » فإن صلين فى المساجد ابتعدن عن أسباب الفتنة ، فقد ثبت فى صحيح مسلم عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : قال لنا رسول الله - صلى الله

عليه وسلم — : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » وفي الصحيحين عن عائشة — رضي الله عنها — أنها قالت : « كانت نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم يرجعن متلفعات بمروطهن » وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : « لو أدرك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بني إسرائيل » انظر ابن كثير .

وذِكْر البيع بعد التجارة مع شمولها له ؛ لأنه أقوى نوعيها في الإلهاء عن الصلاة لحرص التاجر عليه طلباً لربح عاجل ، أو دفعاً لخسارة منتظرة ، أو سداداً لدين ، أو جلبا لرزق ناجز ، بخلاف الشراء فإن الأناة فيه أكثر ؛ إذ الربح فيه متوقع وليس بناجز ، وقيل : المراد بالتجارة : الشراء ، فإنه أصلها ومبدؤها ، وقيل : الجلب منفرداً ، ومنه يقال : تَجَر في كذا ، إذا جلبه ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال في هؤلاء الموصوفين بما ذكر : « هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » .

والمقصود من أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله : أنهم يلبُّون نداء الصلاة جماعة ويتركون البيع والشراء ، روى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي بالصلاة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه : « رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ » رواه ابن جرير الطبري .

وروى عن عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ، ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : « رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ » رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وقد جاء في مثل ذلك أخبار كثيرة[1] .

---

(١) انظر ابن كثير وغيره .

والمراد من تقلب القلوب والأبصار فى يوم القيامة : اضطرابها من الهول ، أو تقلب أحوالها فتفقه ما لم تكن تفقه ، فتؤمن بعد الكفر حيث لا ينفعها الإيمان ، وفى هذا المعنى يقول المولى سبحانه : « فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

٣٨ - (لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

« لِيَجْزِيَهُمْ » : متعلق بفعل يتضمن طاعاتهم السابقة ، أى : يفعلون كل ما تقدم من تسبيحهم لله فى المساجد ، وصلاتهم فيها كلما سمعوا النداء إليها ، وإيتائهم الزكاة لمستحقيها ، وخوفهم من يوم الحساب ، يفعلون كل ذلك ليجزيهم الله أحسن ما عملوا . . . . إلخ .

المعنى الإجمالى للآيات الثلاث : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ما يلى :

يسبح لله تعالى فى مساجد أمر الله أن تعظم بالصيانة والنظافة ، ويذكر فيها اسمه - يسبح له فيها - رجال استنارت قلوبهم بمشكاة الهدى ، فأصبحوا لاتلهيهم ولا تشغلهم دنياهم عن ذكر الله ، وإقام الصلاة فى أوقاتها جماعة كلما سمعوا النداء إليها ، كما لا تشغلهم عن إعطاء الزكاة لمستحقيها فى مواقيتها ، يخشون يوماً رهيباً تضطرب فيه القلوب والأبصار كما قال الله تعالى : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا » وذلك من هول ما رأوا من الشدائد والتغيرات الكونية حيث « تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

يسبح لله هؤلاء الرجال فى المساجد خائفين من يوم الوعيد ، لكى يجزيهم الله فى الجنة أحسن جزاء لما عملوه فى دنياهم ، حسبما وعدهم الله تعالى على لسان رسوله ، ويزيدهم من الثواب فوق ما وعدهم مما لم يخطر لهم ببال ، والله يثيب من يشاء من عباده المتقين رزقاً واسعاً ، دون أن يحاسبه أحد على ما أعطى ؛ فهو الرزاق ذو القوة المتين .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) : السراب – كما عرّفه المتقدمون –: ما يُرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ، فيُظَنُّ أنه ماءٌ يسرب ، أي : يجرى . والقيعة : هي القاع وهو الأَرض المستوية الخالية من النبات[1] ، وسيأْتى لذلك مزيد بيان .

(وَجَدَ اللهَ عِندَهُ) : وجد الظمآن قضاءَ الله عند السراب .

(فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) : أي عميق ، كثير الماء ، منسوب إلى اللُّجِّ واللُّجةِ ، وكلاهما معناه : الماءُ الكثير البعيد القاع . (يَغْشَاهُ مَوْجٌ) : يغطى البحر موج ، مأْخوذ من الغشاء ، وهو الغطاءُ .

التفسير

٣٩ – (وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . . . . .) الآية .

(١) انظر تفسير البيضاوى .

لما ضرب الله مثل المؤمنين فيما تقدم ، عقبه بضرب مثل الكافرين هنا وفى الآية التالية وهذه الآية معطوفة على ماقبلها ، من عطف المَثل على المَثَل ، والقصة على القصة ، كأنه قيل : مثل المؤمنين فى حالهم ومآلهم كما وُصفَ ، ومثل الذين كفروا أعمالهم كسراب . . . إلخ .

ويقول مقاتل : إن هذه الآية نزلت فى شيبة بن ربيعة ، كان يترهب متلمسا الدين فلما خرج – صلى الله عليه وسلم – كفر شيبة ، ذكره القرطبى ، وسواءٌ أكان هذا هو السبب أم غيره ، فالعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والسراب – كما عرفه المتقدمون – : بخار رقيق يرتفع من قاع القيعان تحت تأثير الشمس ، فإذا اتصل به ضوءها أشبَهَ عند من يراه من بعيد الماء السارب ، أى : الجارى ، وقيل : هو ما ترقرق من الهواء فى الهجير بِفَيَافى الأرض المنبسطة ، ويشبه فى لمعانه الماء ، وليس بماء .

وفى خداع السراب يقول الشاعر فى تشبيه العهود الخادعة :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كَلَمْعِ سراب فى الفَلاَ متألّقِ

ويفسره العلماءُ المعاصرون : بأنه ظاهرة ضوئية ، سببها انعكاس الشعاع المنبعث من الأجسام المضيئة ، وارتداده من سطح أرض فسيحة جرداء ، عندما ترتفع درجة حرارتها إثناء النهار ، فيتجه الشعاع المنعكس على التدريج بحذاء سطح الأرض ، متباعدا عنها قليلا قليلا ، حتى يصل إلى عين الراصد ، وعندها تُرَى صور الأجسام المضيئة مقلوبةً ، كما لو كانت مرآة كبيرة ممتدة[1] .

والقيعة : هى الأرض المستوية المنبسطة ، وهى مفرد ، كالقاع ، وقيل : هى جمع قاع ، كجِيرَة : جمع جار .

(١) انظر تعليق الخبراء على كلمة : (سراب) بالتفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين كفروا أعمالهم التى يحسبونها صالحة مرضية لله تعالى كصلة الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وسقاية الحاج ، وعمارة البيت الحرام ، وقِرَى الأضياف ، وغير ذلك من المبَرات - أعمالهم هذه - شبيهة فى ضياعها فى الآخرة بسراب لامع تحت ضوء الشمس فى أرض فسيحة جرداء ، يحسبه الظمآن حين يراه من بعيد يترقرق ويلمع - يحسبه - ماء يروى ظمأه ، ويطفئ لهيب عطشه ، حتى إذا جاءه حيث كان يبدو له ، لم يجده شيئاً مطلقاً ؛ لزوال الصورة التى خدعه بها السراب ، فكذلك جنس الكافر ، يحسب أنه قد عمل فى دنياه عملا نافعًا ، واعتقد اعتقادًا سديدًا ، فإذا بعث يوم القيامة ، ورأى أهوال القيامة ، اشتدت حاجته إلى عمله لينفعه وينجيه ، فلم يجد له أثرا ، وخاب ظنه فيه ، بل وجد حساب الله وافياً فى مواجهته ، ونقاشه إياه مستوجباً لعقائده الزائفة ، وأعماله الفاسدة ، وأنه تعالى لم يتقبل منه ماقدمه من أعمال البر ؛ لأنها قامت على أساس الكفر ، إلى جانب ما داخلها من الرياء والفخر والعُجْب ، فكان أمر الله معه فى تلك المبَرات كما قال - سبحانه - : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[1] .

وقد ختم الله الآية بقوله : « وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » : للإيذان بأنه لايشغله حساب عن حساب ، فلهذا كان سريع الحساب لجميع عباده .

ويلاحظ أن تشبيه عمل الكافر بالسراب انتهى عند قوله تعالى : « لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أما قوله تعالى : « وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » فهو لبيان بقية أحواله بطريق التكملة ، حتى لايتصور أن نهاية أمره هو الخيبة والقنوط فقط - كما هو شأن الظمآن بعد أن عرف حال السراب - بل يعتريهم من سوء الحال والمآل ، مايفوق خيبة الظمآن حين ييئس من الماء[2] .

ومن المفسرين من جعل هذا السراب فى الآخرة ، قال جار الله الزمخشرى : شبه الله سبحانه مايعمله غير المؤمن بسراب سوف يراه بالساهرة - يوم القيامة - وقد غلبه العطش ، فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجده ، ويجد زبانية الله عنده ، يأخذونه فيسقونه الحميم

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ .
(٢) انظر كتاب (إرشاد العقل السليم) .

والفسّاق . قال الآلوسى - تعليقاً على هذا الرأى - : وكأنه مأخوذ مما أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، من طريق السدى فى غرائبه عن الصحابة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وِرْداً[1] عطاشا ، فيقولون : أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه ، فيجدون الله تعالى عنده فيوفيهم حسابهم ، والله سريع الحساب » واستحسن ذلك الطيبى . . . إلى آخر ما كتبه الآلوسى فى هذا المقام .

وقد نقل ابن كثير فى هذا المعنى عن الصحيحين : « أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعملون فى الدنيا ؟ فيقولون : كنا نعبد عزيرا ابن الله ، فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا ، فيقال : أَلَا تَرَوْنَ ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها »[2] .

٤٠ - (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) :

(كَظُلُمَاتٍ) معطوفة بأو على (كَسَرَابٍ) وحرف (أَوْ) هنا : إما للتخيير ، فإن أعمالهم لكونها لاغية لا ثواب عليها ، تشبه السراب ، ولكونها خالية عن نور الحق ، وضوء الإيمان ، تشبه الظلمات المتراكمة من عمق البحر ، والأمواج المتتابعة فوقه ، وظلمة السحاب فأنت مخير فى تشبيهها بأيهما ، قال الزجاج : إن شئت مَثِّلْ بالسراب ، وإن شئت مَثِّلْ بالظلمات[3] .

ويصح أن تكون (أو) للتنويع ، فإن أعمالهم إن كانت حسنة فهى كالسراب فى عدم جدواها ، وإن كانت قبيحة فهى كالظلمات ، وفيها غير ما ذكرنا من الوجوه[4] ، وحَسْب القارىء ما تقدم .

---

(١) الورد - بكسر الواو وسكون الراء - : القوم الذين يردون الماء كالواردة ، ومنه : الموردة ، وهى : مأتاة الماء : (قاموس) .

(٢) البخارى : تفسير سورة النساء ، ومسلم : كتاب الإيمان .

(٣) انظر القرطبى . (٤) انظر البيضاوى .

ومعنى الآية موصولة بما قبلها ما يلى :

والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، أو كظلمات فى بحر عميق بعيد القاع ، يغطى هذا البحر موجٌ من فوقه موجٌ ، وهكذا تتتابع أمواجه ، ويتراكم بعضها فوق بعض ، من فوق هذا الموج المتتابع سحاب كثيف يحجب أضواء النجوم ، فهى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، إذا أخرج من ابتلى بهذه الظلمات يده ، وجعلها قريبة من عينيه لينظر إليها ، لم يقرب من رؤيتها ، فضلا عن أن يراها ، مع أنها أقرب شىء إليه .

وكذلك كل كافر يعيش فى أعماق ظلمات كثيفة داكنة من عقيدته ، وسيئات أعماله ، لا يرى فى أثنائها بصيصا[1] من نور الهدى ، يهديه إلى سواء السبيل ، بسبب تقليده ، وخضوعه لسيطرة أئمة الكفر ، وجنوحه عمن يدعوه إلى الهدى ، قائلا له : إئتنا لتستنير بنورنا .

ويختم الله الآية بقوله : (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) : أى ومن لم يُقَدِّر الله له نورا قلبياً يهديه إلى الحق بسبب إعراضه عنه ، فليس له نور من سواه ، فيبقى فى ظلام دامس من الضلال ، كما قال تعالى : « مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَاهَادِىَ لَهُ » .

أما من يقبل الهدى فإن الله تعالى يهديه بنور على نور ، حتى يثبت الحق فى بصيرته ، ويستعصى على من يضله ، كما قال تعالى : « وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ » نسأل الله الرءوف الرحيم أن يملأ قلوبنا نورا ، ويجعل النور عن أيماننا وشمائلنا ، وأن يعظم لنا النور بفضله ورحمته .

(١) البصيص : البريق .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) : الطير جمع طائر ، كصَحْب : جمع صاحب ، وجمع الجمع : طيور وأطيار ، كفرخ وفروخ وأفراخ ، وقد يقع لفظ الطير على الواحد ، كقوله تعالى : « فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ » ، ومعنى : (صَافَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن .

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) : أى كل من فى السموات والأرض والطير قد علم دعاءه وتنزيهه لله تعالى . (الْمَصِيرُ) : المرجع .

التفسير

٤١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . .) الآية .

بيّن الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أنه هدى عباده ومخلوقاته بنور هداه إلى ما خلقوا لأجله ، وأن من لم يجعل الله له نورا يهتدى به فما له من نور .

وجاء بهذه الآية عقبها ليبين أن آثار هداه فى السموات والأرض والطير واضحة لمن يراها ويتأملها .

والهمزة فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ » للتقرير بالرؤية ، والمراد بالرؤية هنا : العلم والمعرفة ، والخطاب إما أن يكون للنبى – صلى الله عليه وسلم – وإما أن يكون لكل عاقل ؛ فإن كان للنبى – صلى الله عليه وسلم – فهو يشير إلى أنه تعالى قد أفاض عليه من مراتب النور أعلاها وأجلاها ، حتى عرف من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها .

وإن كان لكل عاقل : فهو يشير إلى وضوح هدى الله فى السموات والأرض ومن فيهن لكل من يتأمل فيها ، فلولا هداه وقوانينه الكونية الدقيقة فى كل ذرة من هذا الكون لاختل نظامه ، فهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، ولولا إبداعه المحكم لهذا الكون ، وما أودعه فيه من أسباب الهدى إلى ما خلق لأجله ، لما رأينا هذا الكمال الناطق بنزاهته تعالى عن الشريك والنظير ، وسوء التدبير « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » .

فالمراد من التسبيح فى الآية : التنزيه عن كل ما لا يليق بالله تعالى من نقص أو خلل تنزيها معنوياً تفهمه العقول السليمة ، فإن كل موجود فى السموات والأرض ، من أجزائهما وما استقر فيهما ، أو كان سابحا وطائرا بينهما ، يدل على صانع مبدع واجب الوجود ، متصف بكل صفات الكمال ، منزه عن كل ما لا يليق بشأنه وعظمته ، وإطلاق لفظ : (مَنْ) على العقلاء وغيرهم ، على سبيل التغليب ، كما هو معهود فى عرف اللغة .

وقد نبه الله – سبحانه – على قوة الدلالة وغاية وضوحها بالتعبير عنها بالتسبيح الذى يختص به العقلاء ، وهو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها ، تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال .

وتخصيص التسبيح – أى : التنزيه – بالذكر مع دلالة ما فى السموات والأرض على اتصافه – تعالى – بنعوت الكمال كلها ، لأن هذه الآية مسوقة لتقبيح حال الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه ، بجعلهم الجمادات شريكة له – تعالى – فى الألوهية ، ونسبتهم الولد إليه – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – ولهذا جعل الله أعمالهم « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أو « كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » .

وإنما ذُكِر لفظ : (الطير) مع أنه مندرج فى جملة من فى السموات والأرض ؛ لعدم استقرار الطير فوق الأرض ، ولاستقلالها بآية واضحة على تنزيه الله ـ تعالى ـ عن الشريك وكل صفات النقص ، وعلى كمال قدرته ولطف تدبيره ، حيث أعطاها أجنحة وذيولا تصفُّها وتطير بها ، وحماها بذلك من وقوعها على الأرض استجابة لجاذبيتها ، ومكنها بذلك من الحركة فى الجو والرحلة كما تشاء .

وأما قوله ـ تعالى ـ : « كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » فهو جملة مستأنفة ، اشتملت على صورة بلاغية رفيعة ؛ فقد شُبِّه فيها حال كل من فى السمٰوات والأرض والطير فى أداء وظائفها التى خلقت لها ، استجابة لتسخير الله ـ تعالى ـ شُبِّهت حالها بحال إنسان عرف خالقه وكيفية عبادته وتسبيحه ، فصلى له وسبحه .

وعلى هذا الوجه فالضمير فى (عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) راجع إلى كل واحد مما ذكر ، وإليه ذهب الزجاج .

وأجاز بعضهم أن يكون ضمير (عَلِمَ) راجعاً إلى الله ـ تعالى ـ وضميرا (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) عائدين إلى كل واحد مما فى السمٰوات والأرض والطير ، والمعنى على هذا : كل واحد مما ذكر قد علم الله صلاته وتسبيحه لربه ، والأول أولى ؛ لما فى الثانى من تشتيت الضمائر .

وقال غير واحد : يجوز ألا يكون فى الكلام استعارة ، والعلم على حقيقته ، ويراد به : مطلق الإدراك ، والمراد من قوله : (كُلٌّ) جميع أنواع الطير وأفرادها ، ويراد بالصلاة والتسبيح : ما ألهمه الله إياه من الدعاء والتسبيح المخصوصين به ، قال الآلوسى : ولا بُعْدَ فى هذا الإلهام ؛ فقد ألهم الله كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة ، لا يكاد يهتدى إليها جهابذة العقلاء[1] . . . . إلى آخر ما قال.

(١) فهذه مملكة النحل تدير أمورها أنثى بحكمة عجيبة ، وقد ألهمها الله ـ تعالى ـ بناء بيوت هندسية من الشمع متساوية الأضلاع ، كما ألهمها تغذية الملكات المقبلة بغذاء خاص يختلف عن غذاء الذكور والخنائى ، وهذه الكلاب تنبح قبل حدوث الزلازل منذرة بها ، والقنفذ يحس بريحى الشمال والجنوب قبل هبوبهما فيغير المدخل ، وهذا وأمثاله يدل على أن لها إدراكا عاليا تدبر به شئونها ، فلا يبعد أن يكون لها تسبيح وصلاة . والله أعلم .

وقد ختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) لتقرير ما تقدم فى الآية .

والمعنى الإجمالى للآية : ألم تعلم -أيها العاقل- علماً يشبه الرؤية فى اليقين ، أن الله تعالى ينزهه عن الشريك والنظير ، وعن كل ما لا يليق بجنابه فى ذاته وصفاته وأفعاله - ينزهه - كل شىء فى السموات والأرض ، وبخاصة الطير وهى باسطة أجنحتها وأذيالها فى السماء ؛ لتستطيع أن تتجه بها إلى المشارق والمغارب ، وهى محلقة فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله تعالى فإنها جميعاً بما أنشئت وأبدعت عليه من دقة الصنع ، وأدائها لوظائفها التى خلقت لها ، فى نظام رتيب بلا فتور ولا قصور ، تنطق بلسان الحال ، أن من أبدعها منزه عن الشريك والنظير ، وعن كل نقص فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكل منها فى مجموعه وفى أجزائه قد استجاب لتسخير الله إياه استجابة تشبه استجابة العقلاء لما كلفهم الله به من الصلاة والتسبيح ، والله عليم بأدائها لوظائفها وفق تدبيره الحكيم لها ، لا يغفل عنها طرفة عين ، فهى لذلك لا يعتريها نقص ولا اختلال ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

وأجاز بعض المفسرين حمل التسبيح والصلاة على حقيقته ، كما تقدم بيانه ، قال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود ، وعمم بعضهم التسبيح بمعناه الحقيقى فى جميع الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، أخذا من ظاهر قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »[1] وليس هذا ببعيد على بديع السموات والأرض ، ولقد سجل بعض علماء الغرب بآلة شديدة الحساسية - سجل - أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها ، وهذا يدل على أن فى الكون أسرارا عجيبة لم يصل العقل البشرى إلى كشفها بعد .

٤٢ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) :

أى ولله ملك السموات والأرض خلقاً وملكا وتصرفاً ، فلا يصح أن يعبد سواه ، وإليه وحده المرجع يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ، ولا معقب لحكمه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[2]

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٤٤ (٢) سورة النجم ، الآية : ٣١

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(يُزْجِى سَحَابًا) : يسوقه ويدفعه ، يقال : زَجَاه ، وزَجّاه ، وأَزْجَاه ، أى : دفعه وساقه .

(رُكَامًا) : الركام ؛ السحاب المتراكم بعضه فوق بعض ، ويطلق أيضاً فى غير هذه الآية على كل ما جمع بعضه فوق بعض ، كركام الرمل ، مأخوذ من : رَكَمَ الأشياء ، أى : جمع بعضها فوق بعض . (الْوَدْقَ) : يطلق على المطر وعلى البرق ، وسيأتى شرح ذلك .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا) : المراد من السماء هنا : السحاب أو الجوّ أو الفضاء ، والجبال فى السماء : هى السحب المتراكمة بعضها فوق بعض على هيئة الجبال (مِنْ بَرَدٍ) : البَرَد ؛ حب ينزل من السحب ، فيه بياض كبياض الثلج ، وبرودة كبرودته .

(سَنَا بَرْقِهِ) : السَّنا ؛ الضوء أما السَّناء - بالمد - فهو بمعنى العلوّ والرفعة . والبرق : التلألؤ واللمعان ، يقال : برق السيف وغيره ، أى : لمع . (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى ؛ يصرفهما . وسيأتى بيانه فى التفسير .

التفسير

٤٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ . . .) الآية .

بيّن الله فى الآية السابقة أنه تعالى له ملك السموات والأرض ، وعقبها بهذه الآية ليبين نوعاً من سلطانه وملكه وتصرفه فيهما ، تأكيدا لملكه لهما .

والمقصود من الاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) التنبيه إلى آيات الله التالية للاستفهام المذكور ، والحث على رؤيتها ، أو التقرير بها .

والخطاب فيه : إما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخطابه خطاب لأمته ، لأنه إمامها ، وإما لكل مَنْ هو أهل للخطاب من المكلفين ، والرؤية هنا إما بصرية ؛ لأن تحريك السحب وما يتلوه من آثار أمرٌ مرئىٌّ لكل ذى عينين ، وإما علمية لذوى البصيرة والتأمل ولو على سبيل الإجمال .

والسحاب : واحده سحابة ، ويتكون من بخار الماء الصاعد إلى طبقات الجو العليا ، وينشأ هذا البخار من تسلط حرارة الشمس على المياه فى نواحى الأرض المختلفة ، فإن بقى هذا البخار بيننا ولم يرتفع إلى الطبقات العليا ، فهو الضباب ، فكلاهما ناشئ من بخار الماء[1] .

والله - تعالى - يزجى السحاب المتفرق ، أى : يسوقه من مواطنه المختلفة شيئاً فشيئاً ، ثم يؤلف بين جزئياته ويضمها ، ثم يجعله متراكما بعضه فوق بعض .

ولِلْوَدْقِ فى اللغة معنيان : أحدهما المطر ، وبه قال الجمهور فى تفسيرهم إياه فى الآية ، وشاهِدُه قول الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ولا أَرْضَ أَبْقَلَ إبقالَها

وقال امرؤ القيس : فَدَمْعُهُمَا وَدْقٌ وَسَحٌّ ودِيمَةٌ[2] .

---

(١) ومن ثم قال العلماء : الضباب : سحاب أنت فيه ، والسحاب : ضباب لست فيه .

(٢) السح : السائل . والديمة : الدائم .

والمعنى الثانى : أنه البرق ، حكى القرطبى عن أبى الأشهب قوله فى هذا المعنى :

أثَرْنَ عَجَاجَةً وخرجْن منهـــا خروج الوَدْقِ من خَلَلِ السحاب

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[1] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ) :

السماء فى اللغة : ما عَلَا وارتفع ، ومنه يقال للسحاب : سماء ، وللفضاء والسقف : سماء ، وللرفعة المعنوية : سماء ، ومنه قول الشاعر فى الفخر :

إذا بلغ السماء لنا وليـــدٌ تَخِرُّ له أعادينا ســـــجودا

ولفظ السماء يُذَكَّر ويؤنث ، والمراد به فى الآية : إما السحاب ؛ وإمَّا الفضاء فكلاهما يشتمل على جبال الركام التى ينزل منها البَرَد ، كما هو صريح النص الشريف .

وإطلاق لفظ الجبال على الركام من باب التشبيه البليغ ؛ فإن السحب الركامية تشبه الجبال فى ضخامتها وارتفاعها .

قال الإمام الرازى فى تفسير الآية : أراد بقوله : (مِن جِبَالٍ) السحاب العظام ؛ لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال ، كما يقال : فلان تملك جبالا من مال : انتهى كلام الفخر الرازى .

ويقول علماء الطبيعة الجوية فى عصرنا : إن السحب الركامية ترتفع أميالا على شكل هرمى ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وهم بذلك يؤكدون ما نقلناه عن الإمام الرازى .

وفى الآية إعجاز علمى فوق إعجازها البلاغى ؛ فقد تحدثت عن تكاثف السحب ، ووصولها فى هذا التكاثف إلى درجة عالية تشبه فى ضخامتها وشكلها الجبال ، كما تحدثت عن إنزال البَرَد من تلك السحب الركامية المعبَّر عنها بالجبال ، وعن البروق الخاطفة المتلألئة

---

(١) لفظ (من) فى قوله : (من السماء) ابتدائية ، وقوله : (من جبال) بدل اشتمال من قوله : (من السماء) فإن السماء هنا بمعنى السحاب أو الجو ، وكلاهما يشتمل على ركام السحب الشبيهة بالجبال ، ولفظ : (من) فى قوله : (من برد) للتبعيض أو البيان ، فى موضع المفعول به لقوله : (ينزل) .

القوية الضوء إلى درجة تكاد تخطف الأبصار ، وكل ذلك وغيره تنبىء عنه هذه الآية العظيمة ، ويجرى على لسان أمى لا علم له ولا لغيره من أهل الأرض جميعاً فى زمنه بمثل تلك العلوم الكونية ، حيث كانت الجهالة والبدائية تنتشر بين الناس فى المشارق والمغارب ، الوثنيين منهم وأهل الكتاب ، ولا شك أن هذا لا يمكن أن ينطق به إلا رسول آتاه الله العلم بوحى أيده به ، وآذن بصدقه فى نبوته ورسالته ، فتبارك الله رب العالمين[1]

والبَرَدُ الذى ينزل من تلك السحب الركامية : حبات فى بياض الثلج وبرودته ، ويقول الله فى شأن هذا البَرَد : « فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ » : أى فيصيب الله بهذا البَرَد من يشاء من عباده فيتضرر به فى نفسه ، أو ماله ، أو زراعته ، أو ماشيته ، ويصرفه ويمنعه عمن يشاء ، فيسلم من غائلته ، حسبما جرت به حكمة الله وقدره .

ويعقب الله ذلك بقوله : (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) : أى يقرب ضوء برق السحاب المتراكم المعبَّر عنه بالسماء ، ثم بالجبال ، يقرب ضوءه أن يخطف الأبصار ، من فرط الإضاءة والسرعة ، وفى ذلك دليل عظيم على قدرة الله تعالى ، حيث ولد النور من الظلمة الركامية ، وخلق الشىء من ضده ، بالإضافة إلى ما تضمنته الآية من عجائب إبداعه وقدرته ، ويعقِّب الله ذلك بقوله :

---

(١) وقد علق الخبراء على هذه الآية فى التفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقالوا مايلى : تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم ؛ فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها وما عرف عنها فى العهد الأخير ، من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات ، يتألف عدد منها فى مجموعات هى السحب الركامية ، أى : السحب التى تنمو فى الاتجاه الرأسى ، وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلو مترا فتبدو كالجبال الشامخة .

والمعروف علميا أن السحابة الركامية الممطرة تمر بمراحل ثلاث ، هى :

١ – مرحلة الالتحام والنمو .

٢ – ثم مرحلة الهطول .

٣ – وأخيرا مرحلة الانتهاء .

كما أن هذه السحب هى وحدها التى تجود بالبرد ، وتشحن بالكهرباء ، وقد يتلاحق حدوث البرق فى سلسلة تكاد تكون متصلة (أربعين تفريغا فى الدقيقة الواحدة) فيذهب ببصر الراصد من شدة الضياء ، وهذا هو عين ما يحدث للملاحين والطيارين الذين يخترقون عواصف الرعد – فى المناطق الحارة – وينجم عن فقد البصر هذا أضرار بالغة تشكل خطرا حقيقيا على أعمال الطيران وسط العواصف الرعدية . وتعليقا على هذا نقول : إن ذهاب البصر فى هذه الحالة وقتى ، ولهذا قال – سبحانه – : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) .

٤٤ ـ (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى يُصَرِّفهما بالمعاقبة بينهما ، أو بنقص أحدهما ، وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد ، والظلمة والنور ، أو بما يعم ذلك كله .

ويختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) : والمراد بالأبصار هنا : البصائر والعقول ، فهي التي تعتبر وتتعظ ، أى إن فيما تقدم من إزجاء السحاب ، وإنزال الوَدْقِ والبَرَدِ ، وتقليب الليل والنهار ، لَعِظَةً بليغة لذوي العقول المستنيرة ، وذكرى لمن كان له قلب منيب ، وإدراك وضاء ، حيث يدرك من هذا الإبداع فى الخلق ، والإحكام فى التدبير ، أن ذلك كله من صنع إله قدير ، حكيم خبير .

المعنى الاجمالى للآية :

ألم تشاهد ـ أيها الإنسان ـ من دلائل الألوهية والربوبية ، أن الله تعالى يكوِّن سحابا فى الجو ويسوقه من جهات مختلفة ، ثم يؤلف بين وحداته فيضم بعضها إلى بعض ، ثم يجعله متراكما طبقة فوق أخرى ، فترى المطر أو البرق يخرج من بين هذا السحاب المتألف المتراكم ، وينزل من السماء من سحابها المتراكم الشبيه بالجبال فى عظمتها وارتفاعها ـ ينزل منها حبا يشبه الثلج فى بَرْده ولونه ، يسمى : البَرَد ، فيصيب به من يشاء من عباده من ضرر فى نفسه ، أو ما شيته ، أو زراعته ، أو ماله ، ويصرفه عمن يشاء فينجو من أضراره ، ويخرج منها برقا مضيئا سريع التتابع ، يقرب هذا الضوء من أن يخطف أبصار الناظرين إليه من فرط إضاءته وسرعته .

يُصَرِّف الله الليل والنهار بأن يجعلهما يتعاقبان ، أو يزيد فى أحدهما وينقص من الآخر ، أو يغير أحوالهما برودة وحرارة ، أو يجمع ذلك كله ، إن فيما تقدم من عظائم القدرة ، ودقة التدبير والإحكام لعظةً لأصحاب البصائر النيرة ، لِدِلَالَتِهِ على وجود صانع حكيم قدير عليم ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معارض له فى حكمه .

(وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(كُلَّ دَآبَّةٍ) : الدابة اسم لكل ما يدب ويتحرك من الحيوان ، من : دَبَّ ، يَدِبُّ دبًّا ودبيباً - أى تحرك - ، فهو دابٌّ ، والتاء للمبالغة ؛ ويقال : أكذب من دب ودرج ، أى : أكْذَب الأَحياء والأَموات ، قاله صاحب المختار .

(آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ) : آيات موضحات للحقائق .

(إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : إلى طريق لا اعوجاج فيه .

التفسير

٤٥ - (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ . . . . .) الآية .

بيّن الله - تعالى - فيما تقدم أنه - سبحانه - نور السمٰوات والأَرض ، فلا تخفى ربوبيته على من له عينان ، وأن السمٰوات والأَرض والطير تسبح بحمده ، وتشهد بتنزيهه عن جميع النقائص ، وباستحقاقه جميع الكمالات ، وأن السماءَ والمطر والبَرَد ، والبرق الخاطف وضياءه الباهر من إبداعه ، وتحت إرادته وحكمه ، وأنه يقلب الليل والنهار بحكمة وتدبير رتيب ، وجاء بهذه الآية ليشير بها إلى برهان من براهين ربوبيته ، وهو خلقه كل دابة من ماء .

والمراد بالدابة هنا : مايدب ويتحرك بنفسه على الأرض، أو فى جوفها ، أو فى مائها من الحيوانات والحشرات والأسماك ، والله تعالى يقول : إنه خلقها كلها من ماء ، والمراد منه : النطفة ، فالله - تعالى - جعل لكل ذكر من الحيوانات والحشرات والأسماك نطفة تشتمل على خصائص نوعه ، يودعها أحشاء أنثاه فتحمل ثم تضع ذريتها لا ستبقاء نوعها ، ولا نعلم شيئاً من الكائنات الحية يخالف هذه القاعدة سوى آدم وعيسى ، فآدم خلق من تراب ، وعيسى خلق بالنفخ ، ولا يمنع هذا عموم خلق الكل من الماء ، فالنادر لا حكم له ، فإن وجدت كائنات حية خلقت بغير النطفة سواهما ، فالتعبير حينئذ بلفظ : (كل) مراعاة للغالب.[1]

وقد يراد من الماء : ما دخل فى تكوين كل دابة من الماء ، وخصّة بالذكر دون سائر عناصر تكوينها لأهميته العظمى فى بناء أجسامها ، ويفصل الله - تعالى - أنواع الدواب المخلوقة من الماء فيقول :

(فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ) :

أى : فمن الدواب التى خلقت من ماء من يمشى على بطنه كثعابين البَرِّ وزواحفه المختلفة ، وثعابين الماء وسائر أسماكه ، وسميت حركة هذه وتلك مَشْيًا مع أن الأولى زَحْفٌ ، والثانية سباحة ، للمبالغة فى إظهار قدرتها على الحركة كالدواب التى تمشى ، ويزيدها حسناً ما فيها من المشاكلة لِمَشْيِ ما بعدها ، والمشاكلة نوع من أنواع البلاغة .

ومن هذه الدواب من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنها من يمشى على أربع : كالأنعام والوحوش وبعض حيوانات البحر .

---

(١) يقول الخبراء - تعليقا على هذه الآية - فى منتخب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : الماء فى الآية هو ماء التناسل ، أى : المشتمل على الحيوانات المنوية ، والآية الكريمة لم تسبق ركب العلم فى بيان نشوء الإنسان من نطفة ؟ كما جاء فى قوله - تعالى - : « فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » لم تسبقه فيها فحسب ، بل سبقته كذلك فى بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريقة التناسل من الحيوانات المنوية ، وإن اختلفت أشكال هذه الحيوانات المنوية وخصائصها فى كل نوع من أنواع هذه الدواب .

وبما تحتمله الآية من معان علمية : أن الماء قوام تكوين كل كائن حى ، فمثلا يحتوى جسم الإنسان على نحو ٧٠٪ (سبعين فى المائة) من وزنه ماء ، أى أن الشخص الذى يزن ٧٠ كيلو جراما فجسمه يحوى ٥٠ كجم ماء ، ولم يكن تكوين الجسم واحتواؤه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفا مطلقا قبل نزول القرآن . . . . إلخ ما ذكره الخبراء .

وترتيب الأَصناف حسبما جاءَ فى الآية ، على سبيل التدرج ، ولأَن قدرة الزواحف على الحركة مع فقدانها الأَرجل أَدَلُّ على قدرة الله ، وتمكينه إياها من الحركة بغير الأَسباب المعهودة فى سعى الحيوان على رزقه ، ولم يذكر من يمشى على أكثر من أربع - كالعناكب ونحوها - إما لأَن المراد بكل دابة : ما تقع عليه العين غالباً ، أَو أَن ما ذكر من باب التمثيل و أنه أُشير إلى ما يمشى على أكثر من أربع بقوله تعالى : (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ) أى : مما ذكر وما لم يذكر .

والتعبير بضمير العقلاء فى قوله : (وَمِنْهُمْ) مع أَن من يمشى على بطنه وعلى أربع ليس منهم ، لتغليب جانب العقلاء ، وهم من يمشون على رجلين كالإنسان ، و استعمال : (مَنْ) فى غير العقلاء للمشاكلة ، أَو لأَنها تستعمل فى غير العقلاء بِقِلَّةٍ[1]

ويختم الله الآية بقوله : (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ) : أى يخلق الله مايريد خلقه مما ذكر وما لم يذكر ، بسيطا كان أَو مُرَكَّبًا ، على ما يشاءُ من الصُّوَر والحركات والطبائع والقُوَى ، إن الله على كل شىءٍ أَراد خلقه عظيم القدرة ، إذ يقول للشىءِ : كن ، فيكون .

المعنى الاجمالى للآية :

والله خلق كل حيوان يدب ويسعى فوق سطح الأَرض أَو فى جوفها أَو فى مائها - خلقه - من ماءٍ ، هو سائل النطفة الذى هو أَصل الكائنات الحية المتوالدة ، أَو هو الماءُ الذى خلق منه معظم جسمه ، فمن هذه الدواب من يمشى على بطنه ، كالزواحف والأَسماك ، ومنهم من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنهم من يمشى على أربع : كالأَنعام والوحوش وبعض الحيوانات البحرية ، يخلق الله ما يشاءُ خَلْقَه من هذه الدواب وغيرها ، على ما يشاءُ من صورها وحركاتها وقواها ومنافعها وأَضرارها ، والله على كل شىءٍ أَراد خلقه قدير ؛ إذ يقول له : كن ، فيكون .

---

(١) الحق أن استعمال : (من) فى العقلاء أغلبى ، وأن استعمال : (ما) فى غير العقلاء كذلك ، وقد يتقارضان ، فتستعمل كلتاهما فى غالب ما تستعمل فيه الأخرى - كما هنا فى (من) وكما فى قوله تعالى : (والسماء وما بناها) بالنسبة لما ، فإنها هنا مراد منها المولى - سبحانه وتعالى - أى : ومن بناها .

٤٦ ـ (لَقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : هذه الآية جاءت مقدمة لما بعدها ، ولهذا لم تُعطف على ما قبلها كما عطفت مثيلتها السابقة : « وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ . . . » الآية .

والمعنى : لقد أنزلنا آيات قرآنية موضحات لكل عاقل ما ينبغى توضيحه من الأحكام الدينية ، والأسرار التكوينية ، والله يهدى من يشاء هدايته إلى طريق مستقيم يوصله إلى الحق والفوز فى دار الثواب ، وذلك بتوفيق من وعاها بسمعه وقلبه إلى التدبر فى معانيها ، والنظر الصحيح فيما ترشده إليه من دلائل الحق .

(وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ) : يعرض جماعة منهم عن طاعة الله ورسوله .

(مُعْرِضُونَ) : منصرفون . (مُذْعِنِينَ) : منقادين .

(أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : المراد بالمرض هنا : النفاق . (أن يَحِيفَ) : أن يجور ويظلم .

التفسير

٤٧ - (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) :

بيّن الله - سبحانه - فى الآية السابقة أنه تعالى يهدى إلى آياته البينات من يشاء، وهم أولو البصائر النيرة ، فيهتدون بهديه إلى الصراط المستقيم ، وبين فى هذه الآية وما بعدها من لم يشأ الله هدايتهم من ذوى البصائر المظلمة ، والأفكار الضالة من المنافقين .

ويقول الطبرى وغيره فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها : إن رجلا من المنافقين اسمه : (بشر) كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض ، فدعاه اليهودى إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان اليهودى محقًّا والمنافق مبطلا ، فأبى المنافق وقال : إن محمدا يحيف علينا ، فلنُحَكِّمْ (كعب بن الأشرف) فنزلت فيه[1] .

وقال الضحاك : نزلت فى (المغيرة بن وائل) كان بينه وبين على - كرم الله وجهه - خصومة فى أرض ، فدعاه علىٌّ أن يتحاكما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما محمد فلست آتيه ؛ فإنه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على ، فنزلت[2] .

وهذه الآية وإن نزلت فى قصة واحد من المنافقين[3] ، لكنهم لما كانوا جميعاً على مذهب واحد من النفاق ، حيث كانوا يظهرون الإيمان والطاعة ، ويبطنون الكفر والمخالفة - لما كانوا جميعاً كذلك - حكى الله نفاقهم بصيغة الجمع بقوله : « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا » وختم الآية بقوله : « وَمَا أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » .

والمعنى الإجمالى للآية ، ويقول المنافقون بألسنتهم : صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا ، مظهرين بذلك ولاءهم لله ولرسوله ، ثم ينصرف فريق منهم من بعد قولهم هذا معرضين عما يقتضيه الإيمان من الالتزام بشريعة الله والتخلق بأخلاق المؤمنين ، وما هؤلاء المنافقون بالمصدقين المخلصين ، فقلوبهم مخالفة لألسنتهم ، وما قالوه كان رياءً ونفاقاً لجرِّ المنافع ودفع المضار .

---

(١) نقله القرطبى عن الطبرى . (٢) مختصر من الآلوسى . (٣) على اختلاف الروايتين .

٤٨ - (وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ) :

وإذا دعا المنافقين خصومُهم إلى شرع الله ورسوله ، ليحكم به الرسول بينهم ، فاجأ بعضهم بالإعراض عن التحاكم إلى رسول الله إذا كان الباطل فى جانبهم والحق فى جانب غيرهم ، خشية أن يحكم عليهم بشريعة الله التى تنصف المظلوم ولو كان من الكافرين ، وتدين الظالم ولو لبس ثياب المؤمنين .

٤٩ - (وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) :

وإن يكن للمنافقين الحق جهة خصومهم يأتوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منقادين له ، مسرعين إليه ؛ لعلمهم بأنه سيحكم لهم ؛ لأنه يحكم بالحق حيثما كان .

ثم بين الله ما يدور عليه إعراض المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله وهم مبطلون ، فقال - سبحانه - :

٥٠ - (أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

تفيد هذه الآية أن امتناع المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما يكون الحق ضدهم ، لا يخرج عن أن يكون ناشئاً عن مرض فى قلوبهم ، يميل بهم إلى الظلم وكراهة الحق ، أو ناشئاً - فى زعمهم - عن وجود ما يريبهم ويشككهم فى نبوته - صلى الله عليه وسلم - أو عن خوف من أن يجور الله عليهم ورسوله .

وبما أنه لا سبيل إلى الريب فى نبوته ؛ لأنه النبى الحق المؤيد من عند الله بالآيات البينات ، ولا مجال للخوف من جوره فى الحكم ؛ لأنه عرف بالعدل التام بين الناس جميعاً فلا يبقى إلا السبب الأول ، وهو مرض قلوبهم الشامل لكفرهم ونفاقهم ، فهو الذى صرفهم عن التحاكم إليه - صلى الله عليه وسلم - ولهذا ختمت الآية بالحكم بظلمهم لنفوسهم وذلك بنفاقهم الذى أصبح مرضاً فى قلوبهم .

وقد اتبعت الآية معهم أسلوب المحاورة لكشف حالهم ، والاستفهام فيه للتوبيخ والذم وتشديد النكير عليهم .

والمعنى الإجمالى للآية : أفى قلوب هؤلاء المنافقين مرض منعهم من التحاكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم ارتابوا فى نبوته لوجود ما يريبهم فيها ، أم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله إن تحاكموا إليه ؟ والحق أنه لا يوجد سبب من جهته - صلى الله عليه وسلم - يمنعهم من التحاكم إليه ؛ فهو النبى العادل دون ريب ، بل السبب هو ظلمهم لأنفسهم بمرض قلوبهم ونفاقهم ، وظلمهم لخصومهم بمحاولة الاستيلاء على حقوقهم .

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾)

المفـردات :

(الْمُفْلِحُونَ) : الفائزون . (وَيَتَّقْهِ) : قرأها حفص بإسكان القاف وكسر الهاء غير مشْبَعَة ، حكى ابن الأنبارى أنها لغة لبعض العرب ، إذ يُسكِّنون ما قبل الحرف المعتل بعد حذفهم المعتل للجازم ، ومنه قول الشاعر :

ومن يتَّقْ فإن الله معـــــــــه ورزق الله مؤْتَابٌ وغـــــــادى

وقرأها الباقون بكسر القاف ، اكتفاء بحذف حرف العلة للجازم ، وخفَّفَ كسرة الهاء بعضهم ، وأشبعها بعض آخر ، وهذا عند القراءة ، أما عند الوقف فقد أجمع القراء على تسكين الهاء .

التفسير

٥١ - (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

تحكى هذه الآية الكريمة حال المؤمنين الصادقين إذا دعوا إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثر حكاية حال المنافقين ؛ ليتبين الفرق بين الخبيث والطيب .

ومعنى الآية : ما كان قول المؤمنين الصادقين إذا دعاهم أحد إلى شرع الله ورسوله ليحكم به الرسول بينهم - ما كان قولهم حينئذ - إلا أن يقولوا لداعيهم : سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك بالنزول على حكم الله ورسوله ، وأولئك المؤمنون الصادقون هم الفائزون برضوان الله وجزيل ثوابه ، دون من عداهم من المنافقين الذين يتحاكمون إلى غيره ؛ فرارا من عدل الله ورسوله .

قال قتادة - تعليقاً على هذه الآية - : ذُكِرَ لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عَقبيًّا[١] ، بَدْرِيًّا[٢] ، أحد نقباء الأنصار - أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى ، قال : فإن عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ، ومَنْشطِك ومَكْرَهِك[٣] ، وأثَرَة عليك[٤] ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحًا[٥] ، فما أُمرت به من شىء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة أيضاً ، وذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

---

(١) أى : كان ممن بايع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى العقبة بمنى ، وقد شهد العقبتين - الأولى والثانية - .
(٢) أى : كان من المقاتلين فى غزوة بدر .
(٣) المنشط : ما تنشط إليه نفسك وتشرئب لعمله ، والمكره : ضده .
(٤) الأثرة : حبك الشىء لنفسك ، والإيثار : ضده ، والمراد من السمع والطاعة فى الأثرة عليه ألا يمانع فى تفضيل غيره عليه .
(٥) ظاهرا مكشوفا .

وقال أيضاً : وذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم ، انظر ابن كثير .

٥٢ - (وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

هذه الآية مستأنفة لتقرير ما قبلها من حسن حال المؤمنين ، وترغيب سواهم فى أن يكونوا منهم .

والمعنى ، ومن يطع الله فيما فرضه على عباده ، ويطع رسوله فيما بينه من الفرائض والسنن ، ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل من عمره ، فأولئك هم الفائزون بالنعيم المقيم فى جنة الرحمن الرحيم ، دون من عداهم من المنافقين والكافرين .

* (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : أى طاقة أيمانهم[1] ، والمراد : أنهم بلغوا أقصى المراتب فى الإقسام بالله ، و (جَهْدَ) مصدر فى موضع الحال بتأويله بجاهدين (طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ) أى : طاعتكم طاعة معروفة باللسان ، فلا تقسموا ، فالجملة علة للنهى عن القسم الكاذب

(١) وفى إضافة الجهد للإيمان مجاز بالاستعارة ، لأن الجهد للحالف ، وليس لليمين .

(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَاحُمِّلَ) : أى ما على الرسول سوى تبليغ ماحمله الله من الرسالة وقد فعل .
(وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) : من الطاعة القلبية والظاهرية .

التفسير

٥٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ . . .) الآية .

بَيَّن الله فى الآيات السابقة أن المنافقين « يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم » عن قبول التحاكم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووصفهم بقوله : « وَمَآ أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِين » إلى آخر ما جاء فيهم من ذم أحوالهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أنهم لما علموا بنزول هذه الآيات فيهم جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليبرئوا أنفسهم من النفاق والكذب فى أيمانهم ويعلنوا طاعتهم ، وأقسموا على أنه - صلى الله عليه وسلم - لو أمرهم أن يخرجوا من أموالهم وديارهم لفعلوا[1] .

والمعنى : وأقسم المنافقون مبالغين فى إقسامهم جهد طاقتهم ، ليبرئوا أنفسهم من النفاق وعدم الطاعة والانقياد لحكم الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، قائلين : والله لئن أمرتنا يارسول الله بالخروج من ديارنا وأموالنا لنفذنا أمرك ، وخرجنا منها طاعة لأمرك ، فرد الله عليهم قائلا لرسوله :

(قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : قل لهم أيها الرسول : لا تقسموا على طاعة الله ورسوله ، فطاعتكم طاعة معروفة للناس ، فهى طاعة باللسان ، وليست نابعة من قلوبكم . إن الله خبير بما يصدر عنكم من أعمال النفاق الضارة بالإسلام وبالمسلمين ، فمجازيكم عليها أشد الجزاء .

٥٤ - (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) :

قل لهم أيها الرسول : أطيعوا الله ورسوله مخلصين غير منافقين ، فإن تتولوا وتعرضوا عما كلفتم به من الطاعة فما على الرسول سوى تبليغ الرسالة التى حمله الله تعالى أمر تبليغها ،

(١) وفسر بعضهم الخروج فى الآية بالخروج للجهاد ، ولكنه غير مناسب لسياق الآيات قبلها .

وما عليكم إلا الطاعة الخالصة من النفاق ، فهى التكليف الذى حملكم الله إياه لتنفذوه ، وختم الله الآية بنصيحتهم بقوله :

(وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) : أى وإن تطيعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يأمركم به وينهاكم عنه ويحكم به تهتدوا إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وليس على الرسول إلا تبليغ أمته تبليغا مبيناً للحق والباطل وقد فعل ، وليس عليه أن يقهركم على الطاعة ، فهى مسئولة منكم وتكليف واجب عليكم .

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ) : ليجعلنهم خلفاء متصرفين فى الأرض .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ) : أى وليجعلنه مكينا ثابتاً .

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) : ومآلهم ومسكنهم جهنم .

التفسير

٥٥ - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . . .) الآية .

قال أبو العالية فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : مكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة عشر سنين[1] بعد ما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سرًّا وجهرا ، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون فى السلاح ، فقال رجل : يارسول الله أما يأْتى علينا يوم نأْمن فيه ونضع السلاح ، فقال -صلى الله عليه وسلم - : « لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملإ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة » ونزلت الآية ، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأَمنُوا . ا هـ

وقال الضحاك ماخلاصته : أن هذه الآية تتضمن صحة خلافة أبىبكر وعمروعثمان وعلى فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقد استخلفهم الله على الأَرض التى وَلَّاهم الله عليها ، وإلى هذا الرأى ذهب ابن العربى ، وحكى فى أحكامه أن علماء المالكية يرون أن هذه الآية دليل على صحة خلافتهم ، فهم الذين استخلفهم الله ورضى أمانتهم ، ولم يتقدمهم أحد فى الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأَمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذبُّوا عن حوزة الدين فنفذ الوعد فيهم .

وحكى القشيرى هذا القول عن ابن عباس ، واحتجوا بما رواه سَفينة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

---

(١) التقييد بعشر سنين راجع إلى مدة إيذائهم للنبى وأصحابه بعد الجهر بالدعوة ، أما مدة الدعوة إلى الإسلام بمكة فقد كانت ثلاث عشرة سنة ، وكانت الدعوة فى السنوات الثلاث الأولى فى طى الخفاء ، فلما جهر بها النبى -صلى الله عليه وسلم- وعاب آلهتهم التى عبدها آباؤهم ، أخذتهم حمية الجاهلية ، فآذوه وأصحابه عشر سنين تباعا ، وحملوهم على الهجرة :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » .

وقالت طائفة من العلماء : هذا وعد لجميع المسلمين بأن تكون الأرض كلها تحت لواء الإسلام ، وهم مستخلفون عليها ، كما قال –صلى الله عليه وسلم– : « إن الله زَوَى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » من حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن شداد بن أوس .

واختار ابن عطية هذا القول ، وقال : الصحيح فى الآية أنها فى استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها كالذى جرى فى الشام والعراق وخراسان والمغرب[1] .

ونحن نقول : سواءٌ أكان المراد من الآية الخلفاء الأربعة ، أو جماعة الأمة الإسلامية فقد حقق الله وعده هذا وذاك . وقد ارتفع لواءُ الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها ؛ ولا توجد اليوم أمة فى الأرض إلا والإسلام إما غالب فيها ، أوْ له كيان بين أرجائها ، أو مكان ممتاز بين أديانها ، بفضل سلامة مبادئه ، ووضوح آياته ، وجهاد قادته وثقافة دعاته . وما زلنا ننتظر المزيد من فضل الله رب العالمين .

وكما حقق الله بذلك وعده ، حقق به وعد رسوله – صلى الله عليه وسلم – إذ قال : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، وكلاهما من أعلام نبوته – صلى الله عليه وسلم – لأنه إخبار عما سيكون فكان ، مع أنه فوق مستوى الظنون ، ودون تحقيقه ما هو إلى المستحيل أقرب ، ولكن الله على كل شيء قدير .

وقد وعدهم الله أن يستخلفهم (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : .

والمراد من الذين قبلهم : بنو إسرائيل ، فقد استخلفهم على أرض الجبارين فى بلاد الشام ، وهى الأرض المقدسة التى دعاهم موسى – عليه السلام – إلى دخولها بقوله لهم :

---

(١) ارجع إلى القرطبى .

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ »[١] فأجابوه بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله : « قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا » .

ولما نصحهم بعض المخلصين منهم بالهجوم عليهم متوكلين على الله فإنهم سيغلبونهم « قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »[٢] فشكاهم إلى الله تعالى فحرمها عليهم « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ »[٣]

ولما فَنِيَ هذا الجيل الفاسد . وانتهت عقوبة الحرمان ، فتحها بذرياتهم نبي الله يوشعُ ــ عليه السلام ــ فهذه هى الأرض التى استخلفهم الله عليها بعد أن ظلوا عبيدا للمصريين بعد يوسف ــ عليه السلام ــ حتى أنقذهم الله تعالى من العبودية على يد موسى وهرون ــ عليهما السلام ــ.

وقد أشار الله تعالى إلى ماضيهم المستضعف وإلى الأرض التى استخلفوا عليها بقوله : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا »[٤] .

فالأرض التى أورثوا مشارقها ومغاربها ، هى الأرض المباركة وهى أرض فلسطين لقوله تعالى : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ »[٥] .

وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ »[٦] .

ولما أفسد بنو إسرائيل فيها عدة مرات أخرجوا منها ، وحرموا ميراثها ، ثم اغتصبوها عدواناً من المسلمين الذين خلصوا أهلها من ظلمهم ، وكانوا أحق بها منهم ، والعاقبة للمؤمنين الصابرين .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢١
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٤
(٣) سورة المائدة ، من الآية : ٢٦
(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ١٣٧
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١
(٦) أول سورة الإسراء .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) أى : أنه تعالى كما وعد المؤمنين الصالحين باستخلافهم فى الأرض وعدهم أيضاً بأن يمكن ويثبت لهم دينهم الإسلام الذى ارتضاه لهم ، وأن يمنحهم الأمن والطمأنينة ، بدلا من الخوف الذى كان يقض مضاجعهم من أعدائهم[1] .

وعقب الله هذا الوعد ببيان مقتضيه فقال : (يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) : أى أنه تعالى إنما يستخلفهم ويمكن لهم دينهم ، لأنهم يعبدونه وحده لا يشركون به فى العبادة سواه ، وأتبع هذا بتحذيرهم من الكفر فقال سبحانه :

(وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

والمراد من الكفر هنا إما الردة ، وإما كفران نعمة الاستخلاف والتمكين ، فإن أريد منه الردة فالمراد بالفسق بلوغ الغاية فيه ، حيث ارتدوا بعد إيمان ، وإن أريد منه كفران النعمة ، فالمراد منه مطلق الخروج عن الطاعة مع بقاء الإيمان .

والمعنى الإجمالى للآية : وعد الله الذين آمنوا بالله ورسوله ، وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه – مع قلتهم وكثرة أعدائهم –وعدهم– ، أن يجعلهم خلفاء على أرضه فى مشارقها ومغاربها ، يَلُون أمرها وتدين لطاعتهم ، وينشرون فى أرجائها دينه ، ويبينون للناس آياته وبراهينه .

وهذا الاستخلاف لهم قد سبقه مثله لبنى إسرائيل قبلهم فى أرض فلسطين ، بعد أن استقامت أمورهم ، وعادوا إلى ربهم ، وقبل أن يفسدوا فى الأرض .

كما وعدهم أن يثبت لهم دينهم الإسلام بين سائر الملل والنحل فيحميه من أهلها ، وأن يعوضهم بدلا من الخوف الذى يعيشون فيه أمنًا من الأعداء ، بما يمنحهم من القوة

---

(١) وفى هذا يقول –صلى الله عليه وسلم– لعدى بن حاتم حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة » ؟ قال : لم أعرفها ولكن قد سمعت بها ، قال : « فوالذى نفسى بيده ليثبتن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز .. » من حديث أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب علامات النبوة فى الإسلام .

والكثرة والفتوحات ، لأنهم يعبدونه تعالى لا يشركون به سواه ، ومن ارتد بعد هذا الوعد أو تحقيقه أو كفر بنعمته التى أنعم بها عليه فأولئك هم الخارجون عن الإيمان ، أو عن فضيلة الشكران[١] .

٥٦ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) : وأدوا الصلاة بأركانها وشروطها فى مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالكم وأبدانكم إلى من يستحقها ، وأطيعوا الرسول فى كل ما أمركم به أوْ نهاكم عنه ، لعلكم ترحمون فى الدنيا بتحقيق مواعيد الله لكم ، وتحقيق آمالكم ، وفى الآخرة بالنجاة من النار ، والثواب الجزيل فى جنات النعيم .

٥٧ - (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : فى هذه الآية تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - ووعد له بالنصر ، أى : لاتظن يا محمد أن هؤلاء الذين كذبوك وكفروا بما جئتهم به من الله - لا تظنهم - معجزين الله فى الأرض عن الانتقام منهم ونصرك عليهم ؛ فإن الله قادر على ذلك ، وسوف يعذبهم على كفرهم ، ومآلهم النار يأوون إليها خالدين ولبئس مصير الظالمين .

---

(١) أطال ابن كثير فى التعليق على هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ما كتبه فيها إن شئت ، فإنه كلام نفيس ، تناول فيه التطورات التى مرت بالدولة الإسلامية نحو خلافتها فى الأرض تحقيقا لوعد الله الكريم ، وحسب القارىء ما كتبناه ، ففيه الكفاية والله تعالى هو الموفق .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ
وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ
ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ
ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ
بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۚ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِيَسْتَأْذِنكُم) : ليطلب الإذن منكم . (الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) : عبيدُكم وإماؤُكم ، والتعبير عنهم بما ملكت الأَيمان لأَنهم يؤسرون فى الحرب بالأَيمان لا بالشمائل غالباً فنسب الملك إليها لذلك .

(الْحُلُمَ) بضم اللام : أوان البلوغ . (تَضَعُونَ ثِيَابَكُم) : تخلعونها .

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) :العورة ؛ الخلل ، يقال : أعورُ المكانِ ، أى : مختلُّه[1] ، ورجل أعور أى : مختل العين ، أى : هى ثلاث أوقات يختل فيها تستركم . (جُنَاحٌ) أى : حرج (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ) :أى ؛ هم يطوفون عليكم فى غير هذه الأوقات لقضاء مصالحكم ، فَلاداعى لاستئذانهم منكم .

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ) : العجائز الَّلاتى قعدن عن الحيض والحمل أو عن التصرف لكبر السن ، ومفرده : قاعد ، بدون هاء ، ليدل حذفها على أنه قعود الكبر وهو من الصفات الخاصة بالنساء كالطالق والحائض . (أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) : أى ؛ يتخلين عن الثياب الظاهرة .

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) : أى ؛ غير مظهرات زينتهن (وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ) : يطلبن العفة بالستر (خَيْرٌ لَّهُنَّ) : من التجرد من الثياب الخارجية الظاهرة لأنه أبعد عن التهمة .

التفسير

٥٨ - (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وِمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَآءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ) :

هذه الآية وما بعدها اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وماتقدم فى أول السورة كان بياناً لاستئذان الأجانب بعضهم على بعض ، وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات[2] فى هذه الآية ، أن يستأذنهم خدمهم مِما ملكت أيمانهم من العبيد والإماء وأطفالُهم الذين لم يبلغوا الحلم . وكانوا مميزين فى ثلاثة أحوال :

الأولى : من قبل صلاة الصبح ، لأن الناس حينئذٍ إما نيام فى فرشهم ، وإما قيام من مضاجعهم ليطرحوا ثياب النوم ويلبسوا ثياب اليقظة .

والحالة الثانية : حين يخلعون ثيابهم وقت الظهيرة للنوم .

والحالة الثالثة : بعد صلاة العشاء إلى الفجر ، لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم ، والتساهل فى كشف بعض أجزاء الجسد ، وقد يكون الرجل مع أهله

---

(١) انظر البيضاوى .

(٢) فالخطاب فى الآية وإن كان للرجال ، إلا أن الحكم فيها عام لهم وللنساء ، لأنهن شقائق الرجال فى الأحكام ، إلا ماعلم خصوصه بأحدهما .

فى أية حالة من هذه الحالات ، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فيها ، بل يستأذنوا تأدباً وتصوناً ، وحفاظاً على عورات الناس أن تكشف ، ولقد أطلق الله على هذه الأوقات عورات لذلك روى ابن أبى حاتم بسنده (عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال ابن عباس :

إن الله ستّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَال[1] فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره أى فى كفالته وهو على أهله ، فأمرهم أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال . فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وحكى المهدوى عن ابن عباس أن الاستئذان كان واجباً إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب . ولو عاد الحال لعاد الوجوب – ذكره القرطبى فى المسألة الثانية وعقبه برأى آخر يفيد أن الآية محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء ، وذكر أنه قول أكثر أهل العلم . اهـ .

وبه نقول ، فإن الآية الكريمة أطلقت الأمر بالاستئذان ، سواء وجدت الأبواب والستور أو لم توجد ، فلا يحل اقتحام الأبواب والستور دون استئذان فى تلك الأوقات ، لوجود مقتضى المنع وهو احتمال انكشاف العورات فيها ، روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلِج إلى عمر بن الخطاب ظهيرةً ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب ، فدق عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شىء ، فقال عمر : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوجد هذه الآية قد أُنزلت ، فخر ساجدًا شكرًا لله .

فأنت ترى أن الغلام دق الباب ونادى عمر ودخل قبل أن يستيقظ عمر ويأذن له ، فانكشف منه للغلام ما لا يحب أن ينكشف لأحد ، فلهذا نرى أن الحكم ثابت مع وجود

---

(١) الحجال : جمع حجلة ، وهى بيت كالقبة يستر بالثياب وله أزرار كبار .

الأبواب والستور ، كما أطلقته الآية الكريمة ، ويشير إلى ذلك ختم الآية بقوله سبحانه : « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وقال السدى فى سبب نزول الآية : كان أناس من الصحابة – رضى الله عنهم – يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا – والله أعلم – أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مَرْثَد ، صنعا للنبى – صلى الله عليه وسلم – طعاماً ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ، إنه ليَدْخُل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأُنْزِل فى ذلك : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ . . . » الآية .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ) : أى ليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات حرج فى أن يدخل عليكم عبيدكم وإماؤكم وأطفالكم الذين لم يبلغوا الحلم فى غير هذه الأوقات ؛ لأنكم تكونون حينئذ متسترين محتاطين ، مستعدين لدخولهم عليكم ، لكى يقضوا حاجاتكم ، ولذا علل نفى الجناح بقوله :

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) : أى : هم طوافون عليكم بحوائج البيت ، بعضكم طائف على بعض .

ولا يخفى ما فى هذا التعبير القرآنى الجليل من جبر خواطر المماليك ، بجعلهم بعضاً من سادتهم المخاطبين ، وبذلك يقوى أمر العِلّية ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آيات الأحكام ، والله عليم بمصالح عباده ، حكيم فى تشريعه .

المعنى الإجمالى للآية : يا أيها المؤمنون والمؤمنات يجب عليكم أن تأمروا عبيدكم وإماءكم وأولادكم المميزين الذين لم يصلوا إلى سِنّ البلوغ بالاحتلام ، أن يستأذنوا فى الدخول

ثلاث مرات[1] : (إحداها) من قبل صلاة الفجر ،لأنه وقت القيام من النوم ، والاستعداد للصلاة بالطهر من الجنابة ، أو خلع ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة .

(وثانيها) حين تخلعون ثيابكم وقت الظهيرة ، وتلبسون ثياب نومكم للقيلولة .

(وثالثها) من بعد صلاة العشاء ؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ، ولبس ثياب النوم ، فهذه ثلاثة أوقات يختلُّ فيها تستركم ، وتبدو بعض عوراتكم ، وقد يكون فيها الرجل مع أهله ، فعلِّموا عبيدكم وإماءكم ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم أدب الاستئذان فيها صيانة لعوراتكم ، وتأديباً لأتباعكم وأطفالكم ، ليس عليكم ولا عليهم حرج بعد هذه الأوقات فى ترك الاستئذان ، فهم طوافون عليكم لقضاء مصالحكم ، وهم بعض منكم طائف على بعض ، فكُلْفَةُ استئذانهم عليكم مرفوعة حينئذ ، لأنكم فى غير خلوة ، ومحتاطون بالتستر فى غير هذه الأوقات ، ومستعدون للقائهم لقضاء حاجاتكم ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته التشريعية ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٥٩ ـ (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

لما بَين الله فى الآية السابقة حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم : وهو أنهم لا يُلزَمون بالاستئذان إلا فى الأوقات الثلاثة المبينة فيها ، عقبها الله بهذه الآية لبيان حكم الأطفال الذين بلغوا ، سواء أكانوا أقارب أم أجانب ـ كما قاله أبو حيان فى البحر[2] وقد بين الله ـ تعالى ـ فى الآية أنهم يستأذنون كما استأذن الذين من قبلهم فى قوله تعالى : « يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا . . . » الآية ، وذلك بأن يستأذنوا فى جميع الأوقات قبل الدخول ، ويرجعوا إن قيل لهم : ارجعوا .

---

(١) يرى الجمهور أن قوله تعالى : « ثلاث مرات » بمعنى ثلاثة أوقات ، وإطلاق اسم المرات على تلك الأوقات لمرور المستأذنين فيها ، وعلى هذا يكون لفظ : (ثلاث) منصوبا على الظرفية مجازا ، واختار أبو حيان فى (البحر) أن المعنى : ثلاث استئذانات ، كما هو الظاهر ، فإنك إذا قلت : ضربت ثلاث مرات ، لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات ، ويؤيده قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الاستئذان ثلاث »وعليه يكون لفظ (ثلاث) مفعولا مطلقا للاستئذان مبينا لعدده . انتهى بتصرف يسير نقلا عن الآلوسى .

(٢) وأخرج ابن أبى حاتم نحو هذا التفسير عن سعيد بن جبير .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب أنه قال : يستأذن الرجل على أمه ، وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم وغيرهما عن عطاء أنه سأل ابن عباس -رضى الله عنهما - أأستأذن على أختى؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى - أى : فى كفالتى - وأنا أنفق عليها ، وإنها معى فى البيت ، أأستأذن عليها ؟ قال : نعم - ثم قال : فالإذن واجب على خلق الله أجمعين[1] .

وروى عنه أنه قال : إنى لآمر جارتى - يعنى زوجته - أن تستأذن علىَّ ، وحمل بعضهم الآية على أطفال المؤمنين الأجانب إذا بلغوا ، وقال بعض الأجلّة : المراد بهم : ما يعم البالغين من الأحرار والمماليك ، فهؤلاء وأولئك هم الذين يستأذنون فى جميع الأحوال[2] .

والمعنى الإجمالى للآية : وإذا بلغ الأطفال الحلُم منكم أيها المؤمنون فليستأذنوا فى جميع الأحوال كما استأذن الذين ذكروا من قبلهم فى قوله - تعالى - : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا » وعليكم أن ترجعوا إذا قيل لكم : ارجعوا ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم آيات أحكامه ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٦٠ - (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ اللَّاتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى : والنساءُ العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل ، ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن فليس عليهن حرج فى أن يخلعن ثيابهن الظاهرة التى لا يفضى خَلْعها إلى كشف العورة ، كالرداء والقناع الذى يكون فوق الخمار[3] ، وعليهن ألا يظهرن زينة أمر الله بإخفائها فى قوله - تعالى - : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » وأن يستعففن بالستر أفضل لهن ؛ لأنه أبعد عن التهمة ، وأدعى إلى الخير ، والله سميع لمقالتهن للرجال ، عليم بمقاصدهن فيحاسبهن عليها .

---

(١) ولعل استئذان المحارم البالغين إنما يطلب فى غير الأوقات ، التى وردت فى الآية التى قبلها إذا كان الباب مغلقا ، فإن كان مفتوحا فإنه لا حاجة لاستئذانهم على محارمهم ، لأن فتح الباب فيه إذن ضمنى .

(٢) انظر الآلوسى . (٣) الخمار - بكسر الخاء - : غطاء الرأس ، ويقال له : النصيف .

(لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(حَرَجٌ) : ضيق ومؤاخذة . (إِخْوَانِكُمْ) : أى إخوتكم الذكور .

(مَامَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ) : أى المكان الذى بأيديكم مفاتحه أمانة لإخوانكم ، والمفاتح : جمع مِفتح ، وهو المفتاح . (أَشْتَاتًا) : متفرقين ، جمع شَتٌّ ، أى متفرق .

(مُبَارَكَةً) : مرجوة الخير والثواب . (طَيِّبَةً) : تطيب بها نفس من يستمع إليها .

التفسير

٦١ - (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ . . . .) الآية .

تحدثت الآيات الثلاث السابقة عن أدب الاستئذان من المماليك وصغار الأطفال والبالغين على ذويهم ، وجواز ترك العجائز لبس الثياب الخارجية كالأردية ، مع ستر

ما يجب ستره من المرأة وعدم التزين ، وأن لبس الثياب الخارجية خير لهن وأبعد عن التهمة من خَلْعِها .

وجاءت هذه الآية الكريمة لتحدثنا عن أنواع أخرى من الآداب الإسلامية الرفيعة ، فقد اشتملت على ثلاثة منها (أولها) يرتبط بأصحاب العاهات (وثانيها) يرتبط بالأصحاء (وثالثها) تحية الإسلام عند الدخول ، فأما ما يرتبط بأصحاب العاهات ففي قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) .

وفى هذا الجزء من الآية نقل الآلوسى من كتاب (الزهراوين) عن ابن عباس أن هؤلاء الطوائف كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء ، حذرا من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم ، فنزلت .

ونقل القرطبى عن ابن العربى أنه قال : المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به المشى ، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه ، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك ، ثم قال بعد ذلك مبيناً : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم ، فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيِّنٌ مفيد يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى نقل . اهـ .

قال القرطبى - تعقيباً على كلام ابن العربى - : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأَمْرُ الشريعة يدل على أن الحرج مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتُهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الأنقص ، فالحرج مرفوع عنهم فى هذا . اهـ .

ونرى أن كلام ابن عطية شامل لما قاله ابن العربى ، ولما روى عن ابن عباس ، وهو خير ما يقال فى تفسير هذا الجزء من الآية ، وبه نقول .

(والنوع الثانى من الأدب) يشتمل عليه قوله - سبحانه - :

(وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) :

وقد بيّن الله – سبحانه – فى هذا الجزء من الآية أنه لا حرج على المؤمنين جميعاً ، ومنهم أصحاب العاهات المذكورة ، أن يأكلوا من بيوتهم ، والمقصود منها : البيوت التى فيها أولادهم وزوجاتهم فهى كبيوتهم ، فلا حرج عليهم فى أن يأكلوا من طعام مملوك لهم ؛ لأن ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه ، ولذا لم يذكر الله تعالى الأولاد فى الآية ، قال – صلى الله عليه وسلم – : « أنت ومالك لأبيك » ولأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، فصار بيت المرأة كبيت الزوج ، فكأنه تعالى يقول : ولا على أنفسكم حرج فى أن تأكلوا من مساكنكم التى فيها أهلوكم وأولادكم .

كما بيّن – سبحانه – أنه لاحرج على المؤمنين فى أن يأكلوا من بيوت آبائهم أو بيوت أمهاتهم ، أو بيوت إخوتهم الذكور ، أو بيوت أخواتهم الإناث ، أو أعمامهم أو عماتهم أو أخوالهم أو خالاتهم ، سواء أذنوا لهم فى الأكل أو لم يأذنوا ؛ لأن فى القرابة التى بينهم إذنا عرفيا لهم بالأكل ، ويقول ابن العربى : أباح الله الأكل من جهة النسب من غير استئذان ، إذا كان الطعام مبذولا ، فإذا كان الطعام مُحْرَزًا لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز إلا بإذن .

وقال بعض العلماء : لايباح الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب إلا بإذن منهم ؛ لأنه لا يعلم رضاهم إلا به ، أما القرابة فليست من أسباب الرضا دائما ، فمن الأقارب من لديه سماحة ، ومنهم أشحة ، ولا يعلم ما فى القلوب إلا الله ، فلا يحل الأكل من بيوتهم بغير إذنهم ومعرفة رضاهم ، وهذا الكلام قريب مما قاله ابن العربى ؛ فإن الطعام إذا كان مبذولا لآكليه ، فتلك أمارة على رضا أصحابه .

والمقصود الأول من الآية : هو غرس غريزة الكرم والبر بالأقارب فى نفوس المؤمنين ، ماداموا قادرين على ذلك ، وإعداد النفوس المسلمة إلى هذا اللون من التعاون والتقارب والأخوة فى الإسلام ، عملا بقوله – تعالى – : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » ، وبقوله

- صلى الله عليه وسلم -: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فإن شحت نفوسهم عن الخير مع قدرتهم عليه ، فهذا مخالف للخلق الذى اختاره الله لعباده المؤمنين .

ولقد تأدب المؤمنون بهذا الأدب العالى فى عهده - صلى الله عليه وسلم - ولم يقصروه على الأقارب ، فقد كانوا يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة واحتياج .

ثم قال الله - سبحانه - : « أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ » يعنى أنه يباح لمن كانت لديه مفاتيح مكان مستأمن عليه أن يأكل منه ، والمقصود من ملكه لمفاتيحه أن يكون أمانة تحت يده ، قال ابن عباس - رضى الله عنه - : هو وكيل الرجل وقيّمه فى ضيعته وما شيته . وروى عن عكرمة أنه قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يَطْعَمَ الشيء اليسير[1] .

وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غازياً ، وخلف مالك بن زيد على أهله[2] ، فلما رجع وجده مجهودا ، فسأله عن حاله ، فقال : تَحرجْت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ، وقد أباح الله للصديق أن يأكل من صديقه بقوله : « أَوْ صَدِيقِكُمْ »[3] والصديق : من يصدق فى مودتك ، وتصدق فى مودته .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يدخل بستان أبى طلحة المسمى (بَيْرَحَاء) ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه ، والماءُ مُتَمَلَّك لأهله .

وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه ، إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المودة ، مادام محافظا على المحارم ، أما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن .

ويقول الله - تعالى - :(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) : وهذه الجملة مستأنفة لبيان حكم جديد : هو إباحة الاجتماع على الطعام المشترك ، وأن يتفرقوا إن لم

---

(١) أى : يأكل الشيء القليل . (٢) أي : وكيلا له فى قضاء مصالح أهله .

(٣) لفظ الصديق والعدو يطلق على الواحد والجمع .

يرغبوا فى الاجتماع عليه ، واختلف فيمن نزلت ، فقيل : نزلت فى بنى ليث بن عمرو ، وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ، فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فإن لم يجد من يؤاكله أكل ــ ضرورة ــ وحده ، ونَفْىُ الجناح عن أكلهم دون ضيف لبيان أن لا إثم فيه ، ولا يُذَمُّ صاحبه شرعا ، كما ذمَّت به الجاهلية ؛ فإنهم غير مقصرين إذا لم يحضر الضيف .

وقيل : نزلت فى قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام ، لاختلاف فِي الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض ، فأُذن لهم فيما تحرجوا منه .

(والأدب الثالث فى الآية) تضمنه قوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) أى : فإذا دخلتم بيوتاً من هذه البيوت التى أذن لكم فى الأكل منها ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم قرابة ودينا ، تحية من عند الله تعالى ، ثابتة بأمره ، مشروعة من عنده ، مباركة طيبة ؛ لأن السلام دعوة مؤمن لمؤمن ، يرجى بها من الله السلامة وزيادة الخير وطيب الرزق ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته لكى تتعقلوها وتفهموها ، وتحرصوا على العمل بها .

المعنى الإجمالى للآية : ليس على الأعمى إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه البصير ، ولا على الأعرج إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الماشى ، ولا على المريض إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الصحيح ، فلا يكلف أصحاب هذه الأعذار بما يكلف به سواهم ممن لا عذر لهم ، فهؤلاء جميعاً لا يكلفون بالجهاد بالسيف ونحوه ، والمرضى منهم لا يكلفون بالصيام ونحوه مما ليس فى وسعهم ، حتى يزول عذرهم ، قال ــ تعالى ــ : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[1] » كما أنه ليس على هؤلاء ضيق فى أن يأكلوا مع الأصحاء ، وأن يأكل الأصحاء معهم ، حذرا من استقذارهم إياهم ، وتأذيهم بوجودهم أو بتصرفهم أثناء تناول

(١) سورة البقرة ، من آخر آية فيها .

الطعام بسبب أعذارهم[١] ، ما لم يكن بالمرضى أمراض معدية ، فعليهم أن يتركوا مخالطة الأصحاء فى الطعام ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « لا يوردَنَّ مُمْرِض على مُصِحٍّ » .

وينبغى لمن يؤاكلهم أن ييسر لهم تناول الطعام دون حرج ولا مشقة ولا شح ، وينبغى لهم أن يلتزموا الحكمة فى تناولهم الطعام مع سواهم .

وليس عليكم – أيها المؤمنون – ضيق ولا إثم فى أن تأكلوا من المساكن التى فيها أولادكم وأهلوكم ؛ فأولادكم منكم ، ونساؤكم سكن لكم ، ومودة ورحمة بينكم ، فلا عليكم أن تأكلوا من طعام مملوك لهؤلاء وأولئكم .

وليس عليكم ضيق ولا إثم فى أن تأكلوا من بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوتكم ، أو أخواتكم ، أو أعمامكم ، أو عماتكم ، أو أخوالكم ، أو خالاتكم – ولو بدون إذن – إن كان الطعام مبذولا ، فإن كان داخل حرز ، فلا يحل لكم الأكل منه إلا بإذن منهم ، أو قيام أمارة على رضاهم .

وليس عليكم إثم ولا ضيق فى أن تأكلوا مما وليتم مفاتحه ورعايته وكنتم وكلاء فيه ، كالضياع ومرابض الماشية ، فلكم أن تأكلوا من ثمر الضياع ، وتشربوا من لبن الماشية على ألا تتوسعوا فى ذلك ، وليس لكم حق الادخار منه .

وليس عليكم إثم ولا ضيق فى أن تأكلوا فى بيت صديقكم من طعامه المبذول ، أو المحرز ولو بغير إذن ، إذا علمتم أن نفسه تطيب به لتفاهته ويسر مؤنته ، ما دمتم محافظين على المحارم ، والآن وقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل من بيوتهم بغير إذن منهم .

وقد أباح الله لكم الاجتماع على الأكل فى سفر أو حضر ، فليس عليكم إثم فى أن تجتمعوا على طعام اشتركتم فى ثمنه ، ولكم ألا تشتركوا وتأكلوا أشتاتاً متفرقين .

وإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت التى أبيح لكم الأكل منها ، فاستأذنوا على من فيها ، وسلموا عليهم ؛ فهم كأنفسكم لقرابتهم ، ولأخوتهم لكم فى الدين ، وقد شرع الله هذا

---

(١) روى أن العرب وأهل المدينة كانوا قبل البعث يتجنبون الأكل معهم ، لأن الأعمى تجول يده فى الصحفة ، ولسوء جلسة الأعرج ، وعدم خلو المريض من رائحة تؤذى .

السلام تحية من عنده ، ثابتة بأمره ، مباركة طيبة ؛ لأنها دعوة طيبة من المؤمن لأخيه المؤمن ، مباركة كثيرة الخير ، لما فيها من المودة والألفة وربط القلوب بعضها ببعض .

(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ) : على أمر من شأنه أن يجتمع له المسلمون ، كالإعداد للحرب ونحوه ، ووصف الأمر بأنه جامع على سبيل المجاز .

التفسير

٦٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ . . . .) الآية .

هذه الآية مستأنفة لبيان نوع من أرقى أنواع الأدب فى الإسلام ، وهو ألا ينصرف المؤمن من مجلس الرسول المعقود لأمر جامع ، إلا باستئذانه – صلى الله عليه وسلم – إذا كانت لديه حاجة ملحة إلى الانصراف من هذا الأمر الجامع .

وقد نزلت الآية فى شوال سنة خمس من الهجرة ، حين كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه يحفرون خندقاً حول المدينة لوقايتها من هجوم قريش ، وقائدها أبو سفيان

وغطفان ، وقائدها عيينة بن حصن ، و بنى مرة ، وقائدهم الحارث بن عوف المُرّى ، وبنى أشجع وبنى سليم ، وبنى أسد ، وعدد هؤلاء جميعاً عشرة آلاف مقاتل ، وكان سلمان الفارسى هو الذى أشار على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحفره ، ولم تكن العرب تعرفه من قبل .

وقد حفر فى شمال المدينة ؛ لأن هذه الجهة كانت مظنة هجوم الأعداء ، أما باقى الجهات فمشغولة بالبيوت والنخيل فلا يتمكن العدو من الحركة فيها .

وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفره ؛ لأنهم كانوا فى غير سعة من العيش وقد عمل معهم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فكان يحمل التراب معهم ، وكان المنافقون يتسللون لواذا[1] من العمل ، أو يعتذرون بأعذار كاذبة ، فنزلت هذه الآية تنعى عليهم تسللهم ، وتشير إلى أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم ، لتسللهم عن الجماعة دون استئذان من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

وهذا الحكم ثابت لحكام المسلمين فى الأمور الجماعية الخطيرة ، فإذا كان إمام المسلمين معهم أو مع أهل شوراه أو مع غيرهم لأمر يهم المسلمين ، فلا يحل لأحد أن يتسلل من الاجتماع دون إذن منه .

والمعنى الإجمالى للآية : إنما المؤمنون الصادقون هم الذين اجتمع فيهم أمران ، أحدهما : أن يؤمنوا بالله ورسوله ، وثانيهما : أنهم إذا كانوا معه على أمر يقتضى اجتماعهم ، لم يذهبوا من مكان الاجتماع حتى يطلبوا الإذن من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذهابهم ، فمن خرج دون إذن منه ، فهو ناقص الإيمان ، إنَّ الذين يستأذنونك لبعض شأنهم صادقين ، أُولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا ، دون المنافقين المتسللين دون استئذان ، أو المستأذنين منهم بعذر كاذب ، كقولهم : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا[2] » فإذا استأذنك المؤمنون الذين تعلم صدقهم فى إيمانهم ــ إذا استأذنوك ــ لبعض شأنهم فائذن لمن شئت الإذن له منهم ، فإنك أعلم بمن تكون المصلحة فى بقائه معك منهم ، ومن لا ضرر فى التيسير له بالذهاب ، واستغفر لهم الله فى استئذانهم ، فإنه وإن كان لمصلحة ، لا يخلو

(١) أى : يلوذ بعضهم ببعض ويلجأ إليه فى التسلل .
(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ١٣

عن شائبة تقديم أمر الدنيا على الآخرة ، إن الله عظيم الغفران لفرطات عباده ، واسع الرحمة في قبول أعذارهم .

(لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ) : أي لاتجعلوا نداءه . (يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) التسلل : الخروج على سبيل التدرج والاستخفاء ، واللواذ : التبعية واللجوء ، وقد يطلق على الفرار ، ومنه قول حسان بن ثابت :

وقريش تجول منا لواذا   لم تحافظ وخفَّ منها الحلوم

(يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) : أي يعرضون عن أمره . (فِتْنَةٌ) : محنة في الدنيا .

التفسير

٦٣ - (لَاتَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . . .) الآية .

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان عظيم شأنه - صلى الله عليه وسلم - وكريم قدره ، مقررة لما قبلها من وجوب استئذانه قبل الانصراف من مكان الاجتماع : أي لا تجعلوا نداءه - صلى الله عليه وسلم - كنداء بعضكم بعضاً باسمه ، ورفع الصوت به ، وندائه من

وراء الحجرات ، ولكن نادوه بلقبه العظيم ، مثل : يا نبى الله ، أو يا رسول الله ، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أو : لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، فلا تبالوا بسخطه ، فإن دعاءه مستجاب .

(قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) : لفظ (قد) مع الفعل المضارع يفيد التقليل غالباً ، وقد يفيد التحقيق بمعونة المقام - كما هنا - وهو مع الماضى يفيد التحقيق دائما .

والمعنى : قد يعلم الله بالتحقيق من يخرجون منكم - أيها المنافقون - من مكان يجتمع فيه رسول الله بالمؤمنين دون استئذان منه - صلى الله عليه وسلم - يخرجون - متدرجين متلاوذين بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذَنُ له ، فينطلق معه كأنه تابعه ، أو يهرب فى خفية .

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى فليحذر الذين يخالفون معرضين عما أمر به الله من الاستئذان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين الخروج من مجلسه - فليحذروا أن تصيبهم محنة فى الدنيا ، أو يصيبهم عذاب شديد الإيلام فى الآخرة .

٦٤ - (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

ألا : أداة تنبيه إلى الاهتمام بما يجىء بعدها ، والمعنى : ألا إن لله وحده جميع ما فى السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، خلقاً وملكا وتدبيرا وعلما ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا فى إخفائها وسترها ، إنه يعلم ما أنتم عليه - أيها المكلفون جميعاً - من الأحوال التى من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، ويوم يرجع هؤلاء المنافقون إليه - سبحانه - للحساب والجزاء فى دار الجزاء ، فينبئهم بما عملوه ، فيرتب عليه ما يستحقه من الجزاء ، والله محيط علمه بكل شىء ، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

« سـورة الفرقان »

مكية وآياتها سبع وسبعون

مقاصد السـورة :

بدأت هذه السورة بتنزيه الله الذى أنزل القرآن على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - وخَلَق السموات والأرض وكل شىء فيهما ، ثم نَعتْ على المشركين أنهم أشركوا به من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا ، كما نعت عليهم وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين ، مع أن الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض هو الذى أنزله ، كما نعَتْ عليهم إنكارهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه بشر يأْكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وليس معه ملك يشاركه الإنذار ، ولأنه فقير وليس له جنة يأْكل منها ، مع أن ذلك ليس قادحاً فى نبوته .

كما نعت عليهم تكذيبهم بالساعة ، وحكت أهوال النار التى سوف يصلونها ، وقارنت بينها وبين الجنة التى وعد بها المتقون ، ثم بينت أن المرسلين قبله كانوا يأْكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، فلا وجه لاعتراضهم على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأكله الطعام ومشيه فى الأسواق .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وأن الحكم يومئذ لله وحده ، وأن الظالم حينئذ يعض على يديه لعدم اتباعه الرسول ، وإيثاره أهل الضلال عليه .

ثم ذكرت أن المشركين قالوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، وأجابت بأنه أنزل على فترات لكى يثبته الله فى فؤاده - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب .

ثم تحدثت عن إرسال موسى وهرون إلى فرعون وقومه ، فلما كذبوهما دمرهم الله تدميرًا ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم لأنبيائهم ، وأن الله أهلكهم بسبب تماديهم فى تكذيب رسلهم .

ونعت على قريش أنهم أتوا على قرية قوم لوط ، وعلموا بإهلاكهم ؛ لتكذيبهم رسولهم ورفضهم نصائحه ، حيث أهلكهم الله بحجارة من سجيل أنزلها عليهم من السماء ، وذكرت أن قريشاً استمروا فى تكذيبهم واستهزائهم برسولهم قائلين : « أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً » وبينت أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، لأنهم لم يعتبروا بما حصل لمن قبلهم .

وتحدثت عن الآيات الكونية الدالة على قدرة الله واستحقاقه العبادة وحده ، فذكرت أن ظل الأجسام فى النهار لا يبقى على حالة واحدة ، فإنه تعالى يمده ثم يقبضه شيئاً فشيئاً ، بإحلال ضوء الشمس محله ، ولو شاء الله لجعله ساكنا لا ينقبض ، بجعل الشمس ثابتة على وضع مائل دائماً ، وأنه جعل الليل كاللباس فى ستره الأجسام وجعل النوم راحة للأبدان تشبه الموت ، وجعل النهار نشاطاً لها يشبه البعث والنشور بعد الموت ، وأرسل الرياح ناشرات للسحاب بين يدى رحمته سبحانه ، حيث جعلها مبشرات بالمطر الذى هو من آثار رحمة الله ، إذ به يحيا الإنسان والنبات و الحيوان ، وبينت السورة أن الله صرف الحديث عن آياته فى كتبه السماوية « فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا » .

ثم بينت أنه تعالى أرسل البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما حاجزا ، بحيث يؤدى كلاهما وظيفته فى مصالح الإنسان والحيوان و النبات .

وذكرت أنه تعالى خلق من ماء الزوجين بشرًا ، فجعل هذا البشر إما نسيباً وقريباً ، وإما صهرًا ، وكل ذلك دليل على قدرة الله ووحدانيته ، ومع هذه الآيات يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرًا .

ثم بينت أنه تعالى ما أرسل محمدًا – صلى الله عليه وسلم – إلا مبشرًا ونذيرًا ، وليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – ما يسألهم على التبليغ من أجر إلا أن يسلكوا سبيل العبادة لله وحده ، وذلك شاهد على صدقه ونزاهته فى دعوته .

وحثت النبى – صلى الله عليه وسلم – على أن يتوكل على الحى الذى لا يموت ، ويترك حساب الناس لربهم ، فإنه خبير بذنوبهم ، وأنه لا يضيق صدره بكفرهم وعنادهم .

وبينت أن قريشاً تنكر وصف الله بالرحمن « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا » .

ثم بينت أن عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض متواضعين ، وأنهم يسالمون من يجهل عليهم ويشاركونه ولا يجارونه فى سفهه ، ووصفتهم بأنهم يتعوذون بالله من جهنم ، وأنهم فى إنفاقهم يتوسطون بين التبذير والتقتير وأنهم لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون نفساً بغير حق ولا يزنون ،وأن من تاب منهم من ذنبه توبة نصوحاً فإن الله تعالى يقبل توبته وأنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم تأثروا بها ولم يخروا عليها صمًّا وعميانا ، وأنهم يطلبون من الله أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، ويجعلهم للمتقين إماما ، وأنهم يجزون الغرف العالية فى الجنة بصبرهم على طاعة الله ، ويُحَيَّوْن فيها بالسلام والأمان « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » وأنه تعالى لا يعبأ بعباده لولا عبادتهم ودعاؤهم إياه فإن كذبوا رسله فسوف يكون عذابه ملازما لهم . وسيأتى بيان ما أجملناه فى تفسير آياتها تباعا ، والله تعالى هو الموفق .

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣))

المفردات :

(تَبَارَكَ) : أى تعالى وتعاظم ، ولا يستعمل مع غير الله تعالى غالباً ولا يُتَصَرَّف فيه

(الْفُرْقَانَ) : المراد به القرآن ، وهو فى الأَصل مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما ، سمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . (نَذِيرًا) : أى منذرا أو إنذارا كالنكير بمعنى الإنكار .

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) : أى فهيأه لما أراده له من الخصائص والأَفعال تهيئة دقيقة . (نُشُورًا) : بعثا .

التفسير

١ ـ (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) :

افتتح الله هذه السورة بكلمة (تَبَارَكَ) وهى مأْخوذة فى الأَصل من البركة بمعنى كثرة الخير ، وقد فسرها الحسن وغيره بقوله : تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر ، وفسرها آخرون بقولهم : تزايد وتعالى شأْنه على كل شىءٍ فى ذاته وصفاته وأَفعاله ، فإن البركة تستلزم الزيادة والعلو ، وفسرها الخليل بمعنى تمجد ، وهو قريب من سابقه

وترتيب وصفه تعالى بقوله (تبارك) على إنزاله القرآن ، لما فيه من الخير الكثير لعباده فى الدنيا والآخرة ، ولأنه ناطق بعلو شأنه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وتسمية القرآن بالفرقان ، لأنه فرق بين الحق الذى جاء به نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وبين ما عليه الناس قبله من العقائد الزائفة ، والشرائع الفاسدة ، وشرع لهم من الأحكام ما يناسب مصلحة البشر فى دنياهم وأخراهم ، وقد جاء فى وصف عظمة القرآن قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن هذا القرآن مَأْدَبَةُ الله[1] ، فتعلموا من مَأْدَبَته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يَعْوَجّ فيُقَوَّم ولا يَزيغ فيسْتَعْتَب[2] ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد[3] ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أمَا إنى لا أقول : (ألم) حرف ، ولكن ألف ولام وميم ، ولا أُلْفِيَنَّ أحدَكم واضعاً إحدى رجليه يَدَعُ أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفِرُّ من البيت الذى تُقْرَأُ فيه سورة البقرة ، وإن أَصْفَرَ البيوت[4] لَجَوْفٌ صَفِرٌ[5] من كتاب الله » أخرجه الحاكم وصححه بسنده عن ابن مسعود ، وكذا محمد بن نصر وابن الأنبارى والطبرانى وغيرهم .

والمراد بعبده : نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن رسالته إلى الناس كافة لا تخرجه عن العبودية لله الذى أرسله ، وأن من يَدعى الولدية لله فى رسول أرسله الله إليه ، فهو كافر ، فإنه سبحانه «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ» .

والمراد بالعالمين : الإنس والجن ، منذ عصره -صلى الله عليه وسلم- إلى أن تقوم الساعة ، ومن أنكر إرساله -صلى الله عليه وسلم- إلى الجن فقد كفر ، فإنه معلوم من الدين بالضرورة ، لشمول العالمين لهم ، ولما تدل عليه سورة الجن من أنه تعالى أرسله إلى الجن ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون ، قال تعالى حكاية عن الجن الذين استمعوه : «وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ

(١) أى : مصدر لأدبه تعالى لعباده .

(٢) أى : ولا يميل عن الحق فيلام على ميله .

(٣) أى : لا يبلى على ترداد قراءته .

(٤) أى : أشدها خلوا من الخير .

(٥) أى : خلا .

أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »[1] إلى غير ذلك مما جاء في سورة الجن وفى السنة الصحيحة .

والمعنى الإجمالى للآية : تعالى الله الذى أنزل على عبده ورسوله محمد القرآن ، فارقاً بين الحق والباطل ، ليكون به منذرا للعالمين من الإنس والجن ، ومخوفا لهم من العقاب إن كفروا بآياته ، وعبدوا غيره .

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) :

المراد بخلقه كل شىء إيجاده ، وبتقديره تهيئته لما خلق له من الخصائص .

ومعنى الآية : هو الله الذى له السلطان القاهر ، والاستيلاء التام على السموات والأرض وما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً ، إيجادًا وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، وأمرا ونهيًا ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وليس لغيره فى ذلك شريك أو معين ، وأوجد كل شىء فيهما إما من العدم أو من مواد لا ثقة بخلقه ، فقدره وهيأه وهداه لما أراده منه من الخصائص والأعمال ، كتهيئته الإنسان وهدايته للإدراك والفهم والتدبير ، واستنباط الصنائع المتنوعة ، واختراع الفنون العجيبة ، ومزاولة الأعمال المختلفة ، وتسخير الحيوانات واستزراع المزروعات ، والانتفاع بالجمادات وغير ذلك من عجائب الله فى تقدير الإنسان .

وكتهيئته النحل لاتخاذ مأوى لها فى الجبال والشجر والعرائش ، والتعرف بحواس داخلية على أماكن الزهور والثمار ، فتطير إليها ، وتمتص رحيقها وتأكل من ثمراتها فيتحول غذاؤها إلى عسل شهى مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، فتلقيه فى بيوت هندسية مسدسة الأضلاع ، صنعتها من شمع تفرزه لبنائها « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

٣ - (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) :

تحكى هذه الآية أباطيل المشركين فى عقائدهم وتبين وجه بطلانها ، بعد بيان عقيدة أهل الحق فيما قبلها .

---

(١) سورة الجن ، الآيات : من ١٣ - ١٥

ومعنى الآية : واتخذ المشركون آلهة غير الله تعالى ، عبدوهم وهم لا يستحقون العبادة ، فهم لا يخلقون شيئاً صغيرا كان أو كبيراً ، ولكنهم مخلوقون لله رب العالمين ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ، والذى يضرهم وينفعهم هو الله القدير العليم ، ولا يملكون لأحد موتاً حتى يميتوه ، ولا حياة فى الدنيا حتى يحيوه ، ولا يملكون له نشوراً وبعثاً فى الآخرة حتى يبعثوه وينشروه ، وإنما الذى يملك ذلك كله هو الله تعالى ، فكيف استساغوا عبادتها؟ وهى مجردة من صفات الألوهية واستحقاق الربوبية .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾)

المفـردات :

(إِفْكٌ افْتَرَاهُ) : كذب اخترعه . (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها ، وهى جمع أسطورة ــ كأحاديث جمع ، أحدوثة أو جمع أسطار ، كأقاويل جمع أقوال .

(اكْتَتَبَهَا) : طلب كتابتها . (فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ) : تلقى إليه ممن كتبها ليحفظها .

(بُكْرَةً) أى : أول النهار قبل انتشار الناس . (وَأَصِيلاً) : آخر النهار بعد أن يأووا إلى مساكنهم ، والبكرة : أول النهار ، والأصيل : ضدها ، يعنون أنها تملى عليه خفية ، وقد كذبوا فى ذلك كله ــ قاتلهم الله ــ . (السِّرَّ) : الأمر الخفى المكتوم عن الناس .

التفسير

٤ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَآ إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) :

بين الله فى الآية السابقة سوء رأى المشركين باتخاذهم آلهة لاتضر ولا تنفع ، وجاءت هذه الآية لتبين سوء مقالهم فيما جاءهم به نبيهم من الهدى .

والقائلون هم مشركو العرب ، كما أخرجه جماعة عن قتادة ، وقد سمى منهم - فى بعض الروايات - النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد ، وإسناد القول إلى جميع المشركين ، لرضاهم بما قاله هؤلاء الغلاة المفترون .

وقد ضموا إلى هذه الفرية فرية أخرى ، إذ قالوا إن محمدا قد أعانه على ما جاء به من القصص القرآنى قوم آخرون ، يعنون بهم اليهود ، حيث زعموا أنهم أخبروه بهذا القصص ، فعبر عنه بعبارة من عنده ، ومنهم من زعم أن الذين أعانوه هم : عداس ، وعائش مولى حُوَيْطِب بن عبد العزى ، ويسار : مولى العلاء بن الحضرمى ، وجبر مولى عامر ، وكانوا كتابيين يقرءون التوراة ، أسلموا وكان الرسول -صلى‌الله‌عليه‌وسلم- يتعهدهم بالبر والنصح والهدى ، فا فترت قريش هذه الفرية النكراء ، وقد كذبهم الله فيما زعموا .

ومعنى الآية : وقال المشركون الكافرون بالهدى : ما هذا القرآن الذى يدعونا محمد إلى الإيمان به ؛ إلا كذب اختلقه محمد من عند نفسه ولم يأته من عند ربه ، وأعانه على افترائه على الله قوم آخرون يعرفون قصص الأنبياء مع أممهم ، حيث سردوا عليه تلك القصص ، فصاغها بعبارة من عنده ، وأسند الإعلام بها إلى ربه ، وقد جاء هؤلاء الكافرون بما قالوه ظلماً للحق وكذباً شنيعاً على محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن هذا القرآن لا يستطيع أن يأتى بمثله الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولا يقدر على الإتيان بمثله سوى من أنزله على رسوله ، بما اشتمل عليه من الإعجاز البيانى ، والأحكام التشريعية ، والأخلاق السنية ، والحكم الربانية ، والأخبار الغيبية ، والآيات الكونية ، وامتلاكه نواصى القلوب بأسلوبه ، فأنى لمحمد -صلى‌الله‌عليه‌وسلم- أن يأتى بمثله ، وهو أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ،

وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وعدم اشتغاله بالأدب المنثور ، والشعر الموزون ، ولم يعرفوا عنه حب الرياسة والجاه ، ولا عن أهل الكتاب أنهم يعينون غيرهم على هدم دينهم ، ولا عن أولئك العبيد والموالى أنهم يحسنون فهم الكتب السماوية أونقل ما فيها إن صح أنهم يحفظونها «لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» وقد لبث الرسول فيهم عمرا طويلاً من قبله يعمل بالتجارة ، دون أن يتجه إلى تلك الدعوة التى فوجئ بتكليفه بها ، وهو لا يسألهم عليها أجرا ، ولا يطلب بها جاهاً ، ولا ثراءً فما بالهم لا يعقلون .

٥ ـ (وَقَالُوٓا۟ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) :

بعد ما جعلوا القرآن الحق إفكا من محمد بإعانة البشر له ، بينوا كيفية الإعانة التى زعموها ؛ أى وقال الكافرون : هذا القرآن أباطيل الأولين طلب محمد كتابتها من أهل الكتاب ، فكتبوها له ، فهى بعد تحريرها تملى عليه بكرة أول النهار ، وأصيلاً آخر النهار ، حتى لايراه أحد وهى تملى عليه حيث يكون الناس فى بيوتهم ، لكى يحفظها ممن يمليها عليه .

وقيل : المراد من قولهم : « بُكْرَةً وَأَصِيلاً » : أى دائماً ، وقد كذبوا فى كل ذلك ، ولهذا رد الله عليهم بقوله :

٦ ـ (قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

أى قل لهم أيها النبى ردا عليهم : أنزل هذا القرآن اللهُ الذى يعلم الخفى من الأمور فى السموات والأرض مثلما يعلم الظاهر منها ، وقد أودعه من فنون الأسرار والمصالح الخفية مالا علم لأحد به ، فى أسلوب بديع ونظم فريد أعجزكم وأعجز جميع الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثله ، وأخبركم بمغيبات مستقبلة مكنونة ، لا سبيل لأحد أن يعلمها إلا بوحى من ربه ، إن الله الذى أنزل هذا القرآن ، كان ولا يزال موصوفاً بعظيم الغفران والرحمة ، ولهذا أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على هذه الفرية النكراء ، لعلكم تتوبون فيغفر لكم ويرحمكم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »

(وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾)

المفردات :

(جَنَّةٌ) : أى بستان . (رَجُلاً مَّسْحُورًا) : أى رجلا سُحِر فغلب السحر على عقله .

(ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) : ذكروا فى حقك تلك الأقاويل الغريبة ؛ التى لا تمت إلى الحق بصلة

(فَضَلُّوا) : فبعدوا عن طريق الحق .

التفسير

٧ - (وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . . . .) الآية .

أخرج ابن إسحٰق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية : أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحرث ، وأبا البحترى والأسود ابن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابنَى الحجاج ؛ اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكلموه وخاصموه [1] حتى تعذروا منه ،

(١) أى : جادلوه .

فبعثوا إليه ؛ أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم -عليه الصلاة والسلام- فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نُسوِّدُك ، وإن كنت تريد الملك ملكناك ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « مابى مما تقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله عز وجل بينى وبينكم ، قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضنا عليك فَسَلْ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله تعالى فى قولهم ذلك « وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ . . . . » الآيات[1] .

والمعنى : أنهم بعد ما افتروا على القرآن ما افتروه قالوا : أى سبب لهذا الذى يزعم أنه رسول جعله يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ساعياً على رزقه كما نسعى ، فلو كان رسولاً من عند ربه لخالفنا فى أسلوب معاشنا ، فَهَلاَّ مَيزه الله علينا فَأَنْزَلَ معه ملكاً يكون معه نذيرا لنا ، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا .

٨ - (أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

أى : فإن لم ينزل الله عليه ملكاً يظاهره فى الرسالة ، فهلا يلقى إليه ربه من السماء مالاً يكتنزه ، ليستظهر به ويرتفع احتياجه إلى اكتساب قوته من السعى فى الأسواق مثلنا ، فإن لم يوجد هذا ولا ذاك فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش بريعه كمياسير الناس ،

(١) نقله الآلوسى .

ويمتاز به على عامّتهم وقال هؤلاء الظالمون للمؤمنين : ما تتبعون إلا رجلاً مسحورا مغلوباً على عقله وليس بنبي ، فرد الله عليهم مستعظما لإفكهم ، داعياً للتعجب منه بقوله :

٩ - (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) :

أى : انظر أيها الرسول كيف قالوا فى حقك هذا الكلام المخالف للواقع ، المنافى للصدق ، حيث ضربوا لك الأمثال ، واخترعوا لك تلك الصفات ، فضلوا بها عن الحق والهدى ، متحيرين فيما يصفونك به ، فلا يستقرون فى القدح فى نبوتك على حال ، ولا يستطيعون أن يجدوا طريقا للنيل منها بحال ، فإن الحق يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ ويعلو ولا يُعلى .

١٠ - (تَبَارَكَ الَّذِىٓ إن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل[1] لَّكَ قُصُورًا) :

أى : تعالى الله الذى إن شاء التوسعة عليك فى الدنيا ، جعل لك خيرا من ذلك الذى اقترحوه بساتين تجرى من تحتها الأنهار لا بستانا واحدا ، ويجعل لك قصورا عديدة تتمتع بها ، ولكنه ادخر لك الخير كله بجميع صوره فى الآخرة بعد قيام الساعة التى كذبوا بها

وقد حكى الله تكذيبهم وتوعدهم عليه فى الآيات التالية :

(١) « يجعل » يجعل : مضارع مجزوم معطوف بالواو على محل « جعل » فإنه فى محل جزم جواب الشرط وإن كان مبنيا على الفتح لكونه فعلا ماضياً ، وقرئ بالرفع ، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز فى جوابه الجزم والرفع ، كقول الشاعر : وإن أتاه خليل يوم مسغبة . يقول لا غائب مالى ولا حرم - ويجوز أن يكون استئنافاً .

(بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : المراد بها زمن قيام الناس لرب العالمين ، وسبب التسمية ؛ أنه تعالى يفجأ بها الناس فى ساعة لا يعلمها إلا هو . (سَعِيرًا) : نارا شديدة الاستعار : أى الاتقاد .

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) :أى سمعوا لغليانها صوتاً يشبه صوت المتغيظ والزافر.والتغيظ: هو إظهار الغيظ.والغيظُ : أشد الغضب ، والزفير : إخراج النَّفَس ، وضده : الشهيق ، واستعمال الزفير فى صوت النار مجاز . (أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا) : أى ألقوا من النار فى مكان ضيق لزيادة تعذيبهم .

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) : أى نادوا فى ذلك المكان هلاكاً لينقذهم من عذابه .

(لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) : لاتنادوا فى هذا اليوم هلاكاًواحدا ليخلصكم مماأنتم فيه .

(وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) : أى ونادوا هلاكاً كثيرا ، ليخلصكم كل منها من نوع من أنواع العذاب ، فإن أنواعه كثيرة ، وسيأتى بسط الكلام فى معنى الآية عند تفسيرها .

التفسير

١١ - (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا) :

فى هذه الآية انتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم يتعلق بأمر المعاد ، بعد حكاية إشراكهم وطعنهم فى النبوة .

والمعنى : ليس أمر قريش قاصرا على شركهم ؛ وتكذيبك يامحمد فيما دعوتهم إليه من التوحيد وسائر أنواع الهدى ، بل كذبوا بالساعة وهى : الموعد الذى ضربه الله لبعث الخلائق وحسابها . وقالوا (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[1] فاهتموا بدنياهم وأعرضوا عن أخراهم . فلا تعجب من تكذيبهم إياك فيما جئتهم به من الحق وقد أعددنا لكل من كذب بالساعة والحساب والجزاء فيها — أعددنا لهم — نارا شديدة الاتقاد ، عظيمة الإحراق « لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ » . « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »[2] .

١٢ — (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) :

تحكى هذه الآية وصف السعير الذى توعدهم الله به فى الآية السابقة ، والتأنيث فى « رأتهم » لمراعاة المراد من السعير وهو النار . وقيل : لأنه علم لها . وإسناد الرؤية والتغيظ والزفير إليها على المجاز ، وقيل : إنه على الحقيقة ، كما يؤذن به ظاهر اللفظ ؛ لأن الله قادر على أن يجعل لها بصرا وإدراكاً ؛ بحيث ترى وتتغيظ وتزفر ، على نحو ماقالوه فى نحو قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ومعنى الآية : إذا كان الكافرون بمكان بعيد مكشوف أمام النار . سمعوا لاتقادها صوتاً مزعجا كالذى يحدث من المغتاظ ، وسمعوا لها صوتاً يشبه الزفير الذى يحدث من الموتور الذى يتنفس الصُّعَدَاء[3] حين يظفر بخصمه .

١٣ — (وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) :

أى : وإذا أُلقى الكفار بالساعة فى مكان ضيق من النار وهم مقرنون ، بأن جمعت أيديهم إلى أعناقهم بما يجمعها — إذا أُلقوا فيها كذلك — دعوا فى هذا المحبس النارىّ هلاكاً يخلصهم من عذاب النار المحيطة بهم ، كأن يقولوا : يا ثبوراه — على معنى . هلم إلينا لتنقذنا مما نحن فيه ، وجعل بعض الأجلة دعاء الثبور ونداءه ، كناية عن تمنيهم الهلاك ؛ ليسلموا مما هو أشد منه — كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية : ٣٧ (٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨ (٣) يوزن إبرحاء : تنفس طويل .

١٤ - (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) :

ما جاء فى هذه الآية إما مقول لهم بلسان الملائكة ، وإما مقول بلسان الحال .

والمعنى : يقال لهم : لا تنادوا الثبور اليوم نداء واحدا ، لكى ينقذكم من عذابكم ولكن ادعوه ونادوه نداء كثيرا ، فإن ما أنتم فيه لغاية شدته واستمراره يستوجب منكم تكرار الدعاء فى كل آن ، وعلى هذا الرأى يكون الثبور : أى الهلاك المطلوب واحدا ولكن الدعاء به كثير .

وقيل معناه : وادعوا هلاكا كثيرا ، لا هلاكا واحدا ، لتعدد العذاب بتعدد أنواعه أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ، فهم بحاجة فى كل عذاب إلى هلاك وموت جديد يخلصهم منه ، وأنى لهم الموت ، وهيهات أن ينفعهم هذا الدعاء ، فإنهم خالدون فى النار أبدا ، فالمقصود من الآية : إقناطهم من النجاة ، وأن دعاءهم برفع العذاب لا ينتهى .

(قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾)

المفردات :

(الْخُلْدِ) : المكث الطويل .

(مَصِيرًا) : مُنتهَى ومآلا .

(وَعْدًا مَّسْئُولًا) : أى موعودا يسأل الناس ربهم أن يتفضل بإنجازه — وللكلام بقية فى تفسير الآية .

التفسير

١٥ - (قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا) :

قل أيها الرسول لمن كذبوك فى رسالتك ، وكفروا بالساعة التى يبعث فيها الناس لرب العالمين - قل لهم - : أذلك الذى تقدم من السعير وأهوالها وخلود الكافرين فيها ، وتمنيهم الهلاك والموت ليستريحوا منها - أذلك خير - أم جنة النعيم الخالد التى وعدها الله المتقين الذين صانوا أنفسهم وجعلوها فى وقاية من عذابها الأليم الدائم ، بإيمانهم وصلاحهم ، كانت لهم هذه الجنة فى علم الله تعالى وفى وعده على ألسنة رسله - كانت لهم - جزاء على إيمانهم ، ومنتهى يصيرون إليه بصلاحهم .

١٦ - (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) :

هذه الآية مستأنفة لبيان منهج انتفاع المتقين بنعيم الجنة ، وكأنها جواب سائل يقول : ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوها ؟

والمعنى : لهؤلاء المتقين فى هذه الجنة التى يصيرون إليها ، ما يشاءون من ألوان النعيم المناسبة لهم ، على قدر أعمالهم ودرجتها ، حتى لا يتساوى المقصرون بالكاملين ، فكل طبقة تقتصر مشيئتها على ما هو حق لها بمقتضى وعد الله الكريم ، فلا تمتد رغباتهم إلى ماهو حق لغيرهم ، يظلون فى جنتهم خالدين لا يَخْرُجون منها ولا يُخْرَجُون ، كان ذلك النعيم المقيم موعودا حقيقًا أن يُسْأَل ويطلب ، لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

ويجوز أن يكون الموعود مسئولاً حقيقة على معنى أن الناس يسألونه فى دعائهم بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » وقال سعيد بن هلال : سمعت أبا حازم -رضى الله عنه- يقول : إذا كان يوم القيامة يقول المؤمنون : عملنا لك بما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله تعالى : « وَعْدًا مَسْئُولًا » وأخرج ابن أبى حاتم عن طريق أبى سعيد هذا ، عن محمد بن كعب القرظى أنه قال فى الآية : إن الملائكة لتسأل ذلك فى قولهم : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم . . . » .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره -صلى الله عليه وسلم- ، لتشريفه والإشارة إلى أنه هو الفائز بهذا الوعد لأمته ، والآية تدل على وجوب تحقق وعده الكريم بمقتضى

وعده ، لقوله سبحانه : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً » ووعد الله لا يتخلف، وليس لأحد عنده تعالى حق ذاتى على عمله ، فالله تعالى هو الذى خلقه وأقدره على العمل ، وإنما ذلك بمحض فضل الله ووعده الكريم .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(ضَلُّوا السَّبِيلَ) : بعدوا عن الطريق الموصل إلى الله تعالى .

(مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا) : ما كان يصح لنا . (أَوْلِيَآءَ) : آلهة يلون أمرنا .

(نَسُوا الذِّكْرَ) : غفلوا عن ذكرك لغفلتهم عن آياتك .

(قَوْماً بُورًا) : قوماً هالكين ، وبورا مصدر وصف به القوم ، ويستوى فيه الواحد والجمع ، وقيل : هو جمع بائر ،كعائذ وعوذ ، والعائذ : الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل .

(صَرْفاً) : دفعاً للعذاب ، أو : حيلة من قولهم : إنه ليتصرف أى : يحتال .

التفسير

١٧ ـ (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) :

هذه الآية وما بعدها مسوقة لتذكير المشركين بمسئوليتهم يوم القيامة عن ضلالهم دون من عبدوهم ، وأن معبوداتهم تتبرأ من شركهم ، والمراد مما يعبدون من دون الله :جميع معبوداتهم من الأصنام ، والكواكب ، والملائكة ، وعزير ، والمسيح ، وغيرهم .

واستعمال لفظ (ما) فى العقلاء تغليباً لجانب غيرهم لأنهم أكثر معبوداتهم ، أو لأنها قد تستعمل مع أهل العلم ، كقوله تعالى : « وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا » أى : ومن بناها وهو الله تعالى ، وسؤاله تعالى للمعبودات ليس على حقيقته ، فإنه أعلم بما كان منهم ، بل لتوبيخ عابديهم وإفحامهم .

والمعنى : واذكر أيها الرسول للمشركين يوم يجمعهم الله ومن أشركوهم فى العبادة مع الله ، فيقول سبحانه للمعبودين إفحاماً لعابديهم ، وإلزاماً لهم بمسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم : أأنتم أيها المعبودون أضللتم عبادى هؤلاء عن الحق بدعوتهم إلى عبادتكم معى ؟ أم هم انحرفوا عن السبيل إلى مرضاتى بمحض إرادتهم ؟ حيث كذبوا رسلى ، وأهملوا النظر فى آياتى .

وتوجيه السؤال إلى الجمادات لا مانع منه عقلاً ولا شرعاً ، فالله قادر على أن يخلق فيها إدراكاً تعرف به السؤال ، ويجعل لها صوتاً تجيب به على هذا السؤال ، قال تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ » أى : رجِّعى التسبيح مع داود والطير ، وقال : « حَتَّىٰٓ إِذَا مَاجَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ » .

١٨ ـ (قَالُوا [١] سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ)[٢] :

---

(١) عبر بقالوا مع أنهم سيقولون ذلك يوم القيامة ، للإيذان بتحقيق جوابهم هذا يوم الدين ، فكأنه وقع فعلا فعبر عنه بصيغة الماضى .

(٢) لفظ (من) فى قوله (من أولياء) صلة لتأكيد النفى ، وكثيراً ما يؤتى بها بعد النفى لتأكيده ، وأولياء مفعول نتخذ .

أى : يقول هؤلاء المعبودون يوم يحشرهم وعابديهم جواباً لسؤال المولَى لهم : «أأنتم أضللتم عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » يقولون : متعجبين مستنكرين : تنزيها لك يا ألله عن الشريك والنظير ؛ ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتخذ أولياء نعبدهم متجاوزين إياك . فكيف يصح منا أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك ، فضلاً عن أن يتخذنا له أولياء .

ويصح أن يكون المعنى : ما كان يصح لنا أن نتخذ من دونك أتباعاً ، فإن الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ، ومنه أولياء الشيطان ، أى : أتباعه .

وبعد أن برأوا أنفسهم من تبعة إضلال عابديهم عن الهدى ، استدركوا مبينين . مسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم قائلين :

(وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً) :

أى : ما أضللناهم ، ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها ، فاستغرقوا فى الشهوات وانغمسوا فيها ، حتى غفلوا عن ذكرك ، وشكرك ، والإيمان بتفردك بالربوبية ، وعبدوا غيرك ، وكانوا فى علم الله قوماً هالكين ، بسبب سوء اختيارهم ، وانشغالهم عن الحق بالباطل .

١٩ ـ (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً) :

فى هذه الآية صرف الله الخطاب عن المعبودات ، ووجهه للعابدين ، فالآية حكاية لاحتجاج الله عليهم يوم القيامة ، مبالغة فى تقريعهم وتوبيخهم .

أى : فقال الله تعالى للعابدين : قد كذبكم المعبودون فيما تقولونه من زعمكم ألوهيتهم ، وأنهم حملوكم على عبادتهم ، فما تملكون صرفاً للعذاب عن أنفسكم ، ولا عوناً يخلصكم منه إذا نزل بكم ، ومن يظلم نفسه منكم أيها المشركون بعبادة غير الله ـ أو بأى لون من ألوان الكفر ، نذقه فى الآخرة بالنار والزمهرير عذاباً كبيراً لا يقادر قدره .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

(فِتْنَةً) : امتحانا وابتلاء . (أَتَصْبِرُونَ) : علة لجعلنا — أى : جعلنا بعضكم فتنة لبعض لنعلم أيكم يصبر ، ونظيره ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، ويجوز أن يكون حثًّا على الصبر على الفتن .

التفسير

٢٠ — (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ)[1] :

هذا جواب آخر عن قولهم « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » وقد سبق الجواب عنه بقوله سبحانه : « انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً » وبقوله : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » .

ومن فوائد هذا الجواب تسلية النبى — صلى الله عليه وسلم — روى عن ابن عباس أنه قال : لما عير المشركون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالفاقة وقالوا : « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ . . . » الآية ، حزن النبى — صلى الله عليه وسلم — لذلك ، فنزلت هذه الآية تسلية له .

والمعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد أحدا من المرسلين ، إلا وحالهم أنهم مثلك يأكلون الطعام ليغذوا به أجسامهم ، ويمشون فى الأسواق للتجارة وكسب الرزق ، وليس ذلك منافياً

(١) جملة « إنهم ليأكلون الطعام » وماعطف عليها فى محل النصب على الحال ، وهى مستثناة من أعم الأحوال ، أى : وما أرسلنا قبلك رسلا من المرسلين فى حال من الأحوال ، إلا وإنهم ليأكلون .. إلخ : نقله الآلوسى عن ابن الأنبارى ، واستحسنه أبو حيان ، وتقدير الواو قيل لأن الفصيح عدم الاكتفاء بالضمير ، ومنهم من قال إنما فى الآية هو الفصيح بعد إلا فيكتفى بالضمير بدون الواو ، وفى إعرابها كلام كثير وما قلناه أفضله

لرسالتهم ، بل هو من الصفات الفاضلة ، والأخلاق العالية ، والآيات الواضحة على أنهم صادقون فى رسالتهم عن الله ، لا يبغون بها جاهاً ، ولا يطلبون عليها أجرا ، ولا يكونون بها عالة على أتباعهم .

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ »[١] وقوله سبحانه : « وَمَاجَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ »[٢] .

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) :

الخطاب هنا لجميع الخلائق وفيهم الأنبياء ، والمعنى : وجعلنا بعضكم لبعض فتنة وابتلاء أيها الناس فابتلينا الفقراء بالأغنياء لننظر أيصبرون أم يضجرون والأغنياء بالفقراء لنرى أيحسنون أم يبخلون؟وابتلينا الأنبياء بأممهم ليصبروا على مشاق تبليغهم ومعاداة المُصِرِّين على كفرهم ، وهكذا جميع الطوائف المتقابلة ، نبتلى بعضهم ببعض؛ لننظر ماذا يعملون ؟ فنجزيهم على عَمَلهم لا على عِلْمنا بهم ، ولو شئنا أن نجعل الناس أمة واحدة لفعلنا ، ولكن الحكمة جرت فى ابتلائهم بتخالفهم وتنوعهم .

أخرج الإمام مسلم بسنده عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « يقول الله : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك »[٣] وفى مسند أحمد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: « لوشئت لأجرى الله معى جبال الذهب و الفضة » وفى الصحيح أنه -صلى الله عليه وسلم- خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبدا رسولاً ، فاختار أن يكون عبدا رسولا[٤] .

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) : أى عالما بالصواب فيما يبتلى به عباده ، فلا تضيقنَّ بما يقولون ، ولا يستخفنك ، ما يفعلون ، وسوف يجازيهم بما يظهرون وما يضمرون .

هذه الآية أصل فى تناول الأسباب ، وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك من الأسباب ، وكان أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتجرون ويحترفون ، والإسلام لايقر الناس على البطالة واعتماد بعضهم على بعض فى العطاء .

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٩ (٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٨

(٣) مسلم : كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار . (٤) انظر ابن كثير .

وأما أصحاب الصُّفَّة الذين كانوا يقيمون فى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يسعون فى الأرض مسترزقين. فقد كانوا ضيفاً على الإسلام عند ضيق الحال ، فكان - صلى الله عليه وسلم - : إذا أتته صدقة خصهم بها ، وإذا أتته هدية أكلها معهم ، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى بيوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما وصفهم البخارى وغيره - ثم لما افتتح الله على المسلمين البلاد ، أخذوا بالأسباب ، فأصبحوا أمراء ، وهناك ناس يميلون إلى البطالة وترك الأسباب ، استنادا إلى قوله تعالى : « وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » وهذا من سوء التأويل احتجاجاً لبطالتهم ، فالمراد بالرزق هنا المطر[1] وقد تفضل الله سبحانه بضمانه للناس ، لأنهم لا قدرة لهم عليه ، وقد أجمع أهل التأويل على أن المراد منه ماذكر بدليل قوله تعالى : « وَمَا يُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً » ، ولم يشاهد أحد أن الله تعالى ينزل على الناس من السماء أطباق الخبز ، ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل فى كل ذلك ، وقد أمر الله بالأخذ بها فى قوله جل وعلا : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » أى : بالحرث والحفر والغرس. وقال أيضاً : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه » .

أما حديث « لو أنكم كنتم تَوَكَّلون على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » فلا يصح الاستدلال به على البطالة مع التوكل على الله : فإن غدوها ورواحها سبب لحصولها على رزقها ، فالتوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب .

أخرج البخارى عن ابن عباس قال : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا » ولم ينقل عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضوان الله عليهم - أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد وكانوا المتوكلين على الله حقاً ، والتوكل : اعتماد القلب على الرب مع الأخذ بالأسباب فى تحصيل الأرزاق ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وفى ختام الحديث عن هذه الآية نقول : سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل ، فقال : إنى أريد أن أحج على قدم التوكل ، فقال : اخرج وحدك ، فقال : لا ، إلا مع الناس ، فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم ، و الله تعالى أعلم .

(١) ويقول بعض العلماء إن تسميته رزقاً على سبيل المجاز لأنه سببه أو يؤول إليه ، فالمطر سبب للرزق من النبات والثمار واللحوم ، أو يؤول إليها .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٤١٢٠ س ١٩٨٤ - ٢٥,٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
03399094

